

أخى العزيز
من فضلك
اذا اعجبك الكتاب قم بشرائه

النبي ﷺ في القرآن الكريم

الناشر: دار الفاروق للنشر والتوزيع

الحائزة على الجوائز الآتية

جائزة أفضل ناشر ثقافي عام في مصر لعام ٢٠٠٤

جائزة أفضل ناشر للأطفال والناشئة في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر مدرسي في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر للترجمة من وإلى اللغة العربية في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة الإبداع في مصر لعام ٢٠٠٢ (الجائزة الذهبية)

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠١

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠٠

المركز الرابع كأفضل دار نشر على مستوى العالم

في مجال الترجمة في معرض فرانكفورت عام ٢٠٠٠

فرع وسط البلد: ٣ شارع منصور - المبتديان - متفرع من شارع مجلس الشعب محطة مترو سعد زغلول - القاهرة - مصر.

تليفون: ٧٩٥٣٠٢٢ (٠٠٢٠٢) - ٧٩٤٢٢٠٣ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٧٩٤٣٦٤٣ (٠٠٢٠٢)

العنوان الإليكتروني: www.darelfarouk.com.eg

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

عدد الصفحات ١٩٢ صفحة

رقم الإيداع ٨٣٩٣ لسنة ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: 977-345-949-7




النبي ﷺ في القرآن الكريم

فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
جاد الحق علي جاد الحق
رحمه الله




التعريف بالإمام الأكبر

فضيلة الشيخ جاد الحق

مولده ونشأته:

هو فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق، حنفي المذهب، ولد بجهة بطرة مركز طلخا محافظة الدقهلية في عام ١٩١٧م، حفظ القرآن الكريم وجوده بعد أن تعلم القراءة والكتابة بكُتاب القرية، ثم التحق بالجامع الأحمدي بطنطا في سنة ١٩٣٠م واستمر فيه حتى حصل على الشهادة الابتدائية في سنة ١٩٣٤م وواصل فيه بعض دراسته الثانوية، ثم استكملها بمعهد القاهرة الأزهري حيث حصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٣٩م، بعدها التحق بكلية الشريعة وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤٣، ثم التحق بتخصص القضاء الشرعي في هذه الكلية، وحصل منها على الشهادة العالمية مع الإجازة في القضاء الشرعي سنة ١٩٤٥م.

- **مناصبه:**

عمل فور تخرجه موظفًا بالمحاكم الشرعية، ثم أمينًا للفتوى بدار الإفتاء المصرية، ثم قاضيًا في المحاكم الشرعية، ثم تدرج في القضاء بعد إلغاء المحاكم الشرعية حتى أصبح مفتشًا أول بالتفتيش القضائي بوزارة العدل.

- **منصب الإفتاء:**

عين فضيلة الإمام مفتيًا للديار المصرية عام ١٩٧٨، فكرس كل وقته وجهده في تنظيم العمل بدار الإفتاء، وعمل على تدوين كل ما يصدر عن الدار من فتاوى في تنظيم دقيق حتى يسهل الاطلاع عليها عند الحاجة في أقل وقت ممكن، ثم توج عمله بإخراج الفتاوى التي صدرت عن الدار في قرابة ثمانين عامًا من سجلات الدار حتى تكون في يد كل مسلم يريد الاطلاع عليها والاستفادة منها.

• وزارة الأوقاف ومشيخة الأزهر:

في يناير من عام ١٩٨٢ اختير فضيلته وزيراً للأوقاف، وفي نفس العام صدر القرار الجمهوري بتعيين فضيلته شيخًا للأزهر.

• إنتاجه العلمي:

لفضيلته العديد من الأحكام القضائية التي اشتملت على بحوث واجتهادات فقهية أخرجها طوال عمله بالقضاء، وكذلك البحوث الفقهية والتقارير الفنية في التفتيش على أعمال القضاة.

وقد تم نشر هذه البحوث في مجلة المحاماة الشرعية وغيرها من المجلات.

أما الفتاوى فثابتة بسجلات دار الإفتاء وبها مجموعة من الفتاوى الخاصة بأمور مستحدثة لم تطرح للبحث من قبل.

هذا بخلاف الأبحاث المطولة التي قدمها فضيلته في المؤتمرات التي شارك فيها أو التي ترأسها.

مقدمة

نحمد الله تعالى ونصلي ونسلم على خاتم رسله وصفوة أنبيائه سيدنا محمد وآله وصحبه، وبعد:

يطيب لنا أن نقدم بين يدي القارىء هذا الكتاب من أحاديث فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق تحت عنوان "النبي في القرآن الكريم" نعايش فيها "ابتداءً هدي النبي الكريم، وخلقه القرآني، وسلوكه الرباني ورحمته العامة الشاملة وباهر معجزاته.

ثم ينتقل بنا فضيلته إلى الحديث عن "القرآن والأخلاق" وعن "مفاهيم حول القرآن" و"منهج التدين في الإسلام ويختتم هذه السلسلة ""بموضوعات متفرقة" يهم كل مسلم أن يتعرف على حقيقتها كي يسلك الطريق الصحيح إليها ويدرك الفهم الدقيق لمعانيها بعيداً عن الأفكار المضللة التي تجاذبتها الأقلام فجنحت بها يمينًا ويساراً بين تفريط وإفراط، وبين غلو وتساهل حتى تاهت الحقيقة أو كادت تلتبس على كثير من المسلمين في وسط هذا الخضم من التحديات المعاصرة التي تواجه الذين يعتنقون الإسلام كدين سماوي شَرَعَهُ الحكيم الخبير لصالح البشرية في كل زمان ومكان.

وقد وضح فضيلة الإمام الأكبر الحكم الصحيح في الإسلام في هذه المسائل، ومن بينها مشكلات الشباب وسمات الحلال والحرام. وقد أفرد فضيلته فصلين عن "القرآن والإنسان" و"القرآن والمرأة" فأدلى بالأحكام الصحيحة التي تقضي على ما يثيره غير المتخصصين من هوى يريدون جعله حكمًا يلزمون به الناس، مما جعل بعض الأمور يتجاذبها الإفراط والتفريط شأن كل أمر يتوسده غير من هو له، إلى غير ذلك مما يجده القارئ في هذا الجزء من الكتاب.

والأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف وهي تقدم هذا الكتاب "النبي في القرآن الكريم" لتبتهل إلى الله العلي القدير أن ينفع به بقدر ما بذل فيه من جهد أمين مخلص في سبيل ترسيخ عقيدة المسلم على أساس متين من الفهم لكتاب الله تعالى ومقاصده والسنة النبوية الشريفة وأغراضها، وهذا ما كان يكرس له الشيخ جاد الحق وقته وفكره.

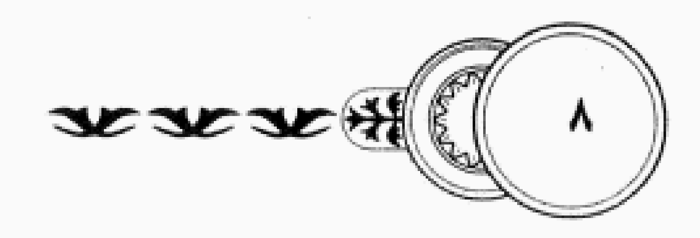
ربنا واجعلنا من أهل القرآن الذين توحدت قلوبهم بشريعة الإسلام وتزكت نفوسهم بهدي خير الأنام حتى نكون من أهل الله وخاصته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمين العام

للجنة العليا للدعوة الإسلامية

"محمد أمين البدوي"



«النبي - ﷺ- في القرآن»

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1]

الأنبياء أول الدعاة إلى الله، وهم صفوة الخلق وأفضل البشر. اختارهم الله سبحانه وهو العليم الخبير:

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[2]

وطبائع الأنبياء البشرية تأتي في أعلى وأنقى مراتبها، فهي فوق المستوى الذي يألفه الناس لدى علية القوم، مهما بلغ هؤلاء من مراتب الفضل.

ذلك ما يشير إليه قول الله سبحانه.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[3]

ومن ثم، كان النظر إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من جهة بشريتهم المطلقة فقط خطأً وتجاوزًا لقدرهم.

ولقد اصطفى الله سبحانه محمداً ﷺ نبياً ورسولاً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. يهدي به الله من اتبع رضوانه إلى الدين الحق وإلى الصراط المستقيم.

---

(١) الآيتان ٤٥ و٤٦ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٦٨ من سورة القصص.

فهو ﷺ أشرف الخلق وأكرم البشر، يشير إلى هذا قول الله سبحانه:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (١)

أي أن بشريته ﷺ بشرية رسالة، وأن رسالته التي بعث بها رسالة يطيقها البشر، وقد جاء لهدايتهم.

ولقد استغرقت صفات الرسالة لديه ﷺ كامل الطباع البشرية في تكوينه.

ومن ثم، كان وصفه في كثير من آيات القرآن بصفة الرسالة وحدها. من هذا قول الله سبحانه.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (٢)

وقال تعالى أيضاً:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (٣)

كذلك يقول الله جل شأنه:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (٤)

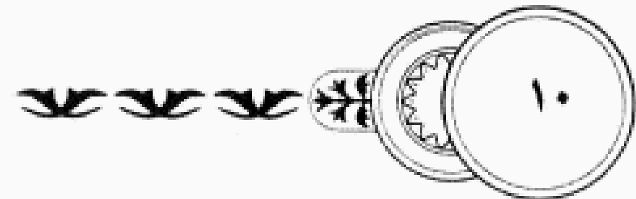
---

(١) من الآية ٩٣ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٤) من الآية ٥٩ من سورة النساء.



كما يقول أيضاً:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾(١)

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد توافرت على وصف محمد ﷺ بالرسول وخطاب الله إياه بهذا الوصف في التكليف أمراً ونهياً، وفي خطاب الناس أمراً باتباع الرسول. إذا كان ذلك سبيل الله في القرآن الكريم مع الرسول ﷺ كان الذين يفيضون في وصف محمد ﷺ بمعاني البشرية المحضة خاطئين، وكانوا ممن آذوا الله ورسوله، وهؤلاء قد توعدهم الله في القرآن الكريم بسوء الحال والمآل. فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢)

كما قال أيضاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾(٣)

ولقد عهد الله إلى المسلمين بتوقير الرسول محمد - ﷺ - وتعظيمه، وجعل هذا واجباً مفروضاً. فقال سبحانه:

﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾(٤)

أي لا تنادوا رسول الله باسمه المجرد عن الرسالة أو النبوة؛ بل يكون خطابه ونداؤه بهذا الوصف - الرسالة أو النبوة - كما خاطبه الله بها، فقال تعالى في الكثير من الآيات: (يا أيها النبي) و(يا أيها الرسول)؛ بل إن القرآن لم يوجه إليه خطاباً إلا نداءً بوصف الرسالة أو النبوة.

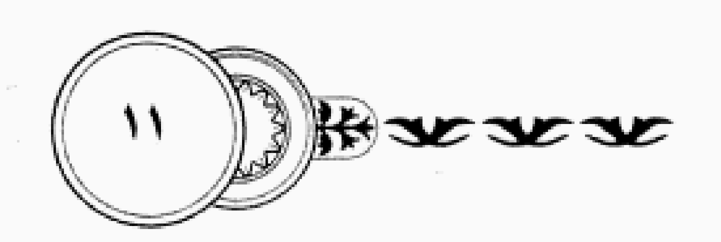
---

(١) من الآية ٦٤ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٦١ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٥٧ من سورة الأحزاب.

(٤) من الآية ٦٣ من سورة النور.



وفي سورة الحجرات، أمر بآداب أخرى في خطاب الرسول ﷺ فقد قال الله سبحانه:

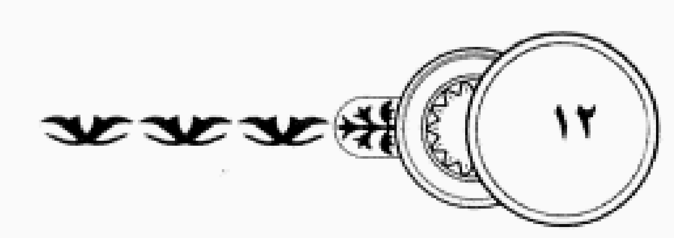
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

فما أحوجنا نحن المسلمين ـ اليوم ـ إلى استحضار هذه الآداب التي نزل بها القرآن نحو النبي ﷺ والالتزام بها عندما نتحدث عنه وعن رسالته وعن أخلاقه وعن شؤونه، فنحفظ له مكانه ومكانته التي حرص القرآن الكريم على تبيانها لأصحابه. فالتزموا بها جملةً وتفصيلاً.

ولعله بهذا يتضح خطأ أولئك الذين يتحدثون، أو يكتبون عن الرسول ﷺ بذكر اسمه غير مسبوق بالرسول أو النبي أو متبوع بالصلاة والسلام عليه، وأن على هؤلاء أن يلتزموا بما التزم به القرآن، فقد قال الله تعالى:

---

(١) الآيات من ١:٥ من سورة الحجرات.



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾(١)

كما قال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾(٢)

وقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(٣)

وغير هذا نجد الكثير في آيات القرآن الكريم.

وعندما ورد اسمه في بعض آيات مجرداً، اتبع ذلك بوصف النبوة أو الرسالة.
من ذلك قوله تعالى:

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾(٤)

وقوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾(٥)

وقوله سبحانه:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ﴾(٦)

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة المائدة.

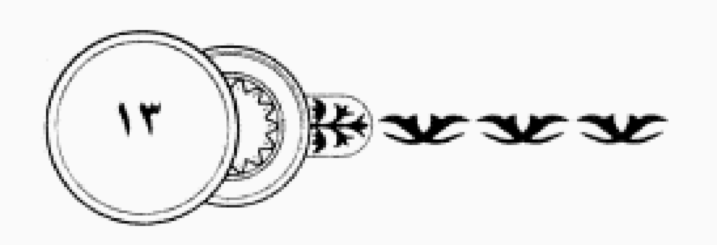
(٢) من الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٣) الآية ٦٤ من سورة الأنفال.

(٤) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٥) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٦) من الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.



ذلكم بعض حديث القرآن الكريم عن الرسول محمد ﷺ والأدب معه وفي الحديث عنه.

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

لقد كرم الله سبحانه الرسول ﷺ وأكرمه ورفع ذكره وأمر بالصلاة والتسليم عليه أمرًا غير محدود بعدد ولا بوقت على ما يستفاد من هذه الآية الكريمة.

وفي معنى الصلاة على رسول الله قال ابن عباس - رضي الله عنه -: الذين يصلون على النبي يُبَرِّكون."

وفي تفسير العلماء:

"إن الصلاة من الله تعالى على غير رسول الله محمد ﷺ رحمة، وعلى النبي ﷺ تشريف وزيادة تكريم."

أما صلوات الرسول ﷺ بالنسبة للمؤمنين فهي الدعاء لهم. كما قال الله تعالى:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾ (٢)

أي ادع لهم. وصلاة الله للمسلمين تعني تزكيته وتطهيره إياهم..

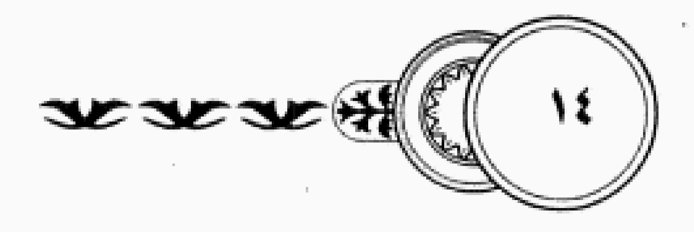
يشير إلى هذا قول الله سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٣)

(١) الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٤٣ من سورة الأحزاب.



أي أن الله سبحانه يزكي المؤمنين ويطهرهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور. وأما صلاة الله والملائكة على النبي ﷺ فهي المباركة والتمجيد ورفع الذكر والمقام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[1]

أي، يا أيها المؤمنون ادعوا الله للنبي بالتمجيد والتبريك والتعظيم.

فالواجب على كل مسلم ومسلمة الصلاة والتسليم على النبي ﷺ نزولاً على أمر الله سبحانه في هذه الآية، وأن يكثر المرء من ذلك.

وإلى هذا ذهب الإمام مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم فقالوا: "إن الصلاة والسلام على النبي ﷺ فرض في الجملة بعقد الإيمان، وتتعين في الصلاة المفروضة خمس مرات في اليوم والليلة."

وقال أصحاب الشافعي: "الفرض في الصلاة على النبي ﷺ هو الذي أمر به الله ورسوله في الصلاة. أما في غيرها فلا خلاف في أنها غير واجبة."

وفي فقه الإمام الشافعي: "أن من لم يصل على النبي ﷺ بعد التشهد الأخير في الصلاة. قبل السلام. فسدت صلاته وعليه إعادتها."

وهذا موافق لما روي عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ إذ قال أبوجعفر: "لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ لرأيت أنها لا تتم."

والصلاة والسلام على النبي ﷺ في التشهد ـ قبل السلام ـ مرغوب فيها عند أهل العلم جميعًا، وهي كذلك مرغوب فيها عند الدعاء.

فقد نقل عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قوله: "إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئا. فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل الله، فإنه أجدر أن ينجح».

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

وأركان الدعاء: حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله سبحانه.

وأجنحة الدعاء: الصدق

ومواقيته: الأسحار

ومدخله: الصلاة على النبي ﷺ

وروي عن ابن عباس قوله: "إذا دعوت فقل: اللهم استجب دعائي، ثم صلِ على النبي ﷺ فتقول: اللهم صَلِ على محمد عبدك ونبيك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك أجمعين. آمين."

هذا، ومن مواطن الصلاة على النبي ﷺ أن تصلي عليه عند ذكره وسماع اسمه، وعند كتابته، وعند الآذان.

ومن ثم، فإن الذين يكتبون حرف (ص) عقب كتابة اسمه لم يؤدوا ما أمر الله به من الصلاة على النبي ﷺ.

روى الترمذي والحاكم أن النبي ﷺ قال:

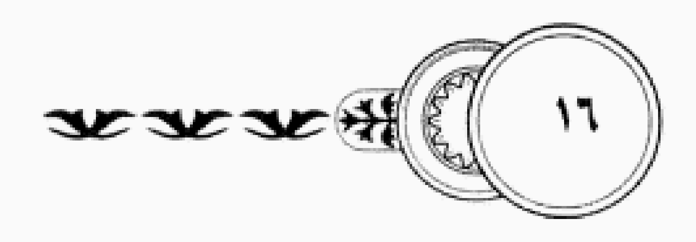
"رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة."

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه:

"من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا."

لقد كرمه الله وأكرمه فلقد أخذ الله له العهد على جميع الأنبياء - عليهم السلام -.

فقد قال الله تعالى:



﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (١)

و(إصري) أي: عهدي. وهو ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام.

فقد قال الله تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ (٢)

وهو بشارة عيسى عليه السلام.

فقد قال الله تعالى:

﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ (٣)

وهو خاتم النبيين والرسل الكرام، ودينه خاتم الرسالات النبوية السماوية.

فقد قال سبحانه:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ (٤)

وقد شرح الله صدره، وييسر له أمره، وأعلى ذكره:

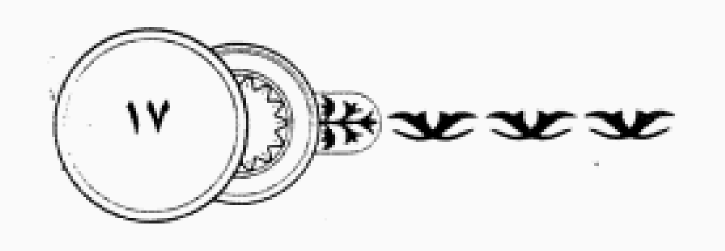
---

(١) الآية ٨١ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١٢٩ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦ من سورة الصف.

(٤) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.



﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[1]

وقد قرر القرآن أن الرسول ﷺ بشر مثل من سبقه من الرسل، ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[2]

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3]

ولما جادله قومه وسألوه أن يأتيهم بما يعجز عنه الناس أوحى الله إليه قرآنا يجيب به مقرراً أنه لم يخرج عن كونه بشراً، نرى هذا الحوار في قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[4]

(١) الآيات ١:٤ من سورة الشرح.
(٢) من الآية ١١٠من سورة الكهف.
(٣) من الآية ٩ من سورة الأحقاف.
(٤) الآيات من ٩٠:٩٣ من سورة الإسراء.

إن محمداً بشر ورسول فلقد أكد القرآن ذلك وسجله في غير موضع من آياته. ذلك قول الله:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [1]

كما قال سبحانه:

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [2]

ولأنه بشر، فله خصائص البشر؛ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء ويولد له، كما كان لمن سبقه من الرسل أزواج وذرية، وهو رسول الله يُبلّغ آياته وأحكامه ويجتهد فيما يقع من حوادث، فيقره الله على اجتهاده أو يعاتبه الله عليه، كما في قصة أسرى «بدر»، وإطلاقه سراحهم بالفدية. وكما في قضية تزوجه ﷺ بمطلقة ابنه بالتبني، تشريعاً للأمة بتحريم التبني وبإبطال ما كان عرفاً عند العرب، وفيما وقع مع رسول الله مع واحدة من أزواجه، وتحريمه على نفسه بعض ما أحل الله إرضاءً لها، بل وعتاب الله رسوله في شأن عبد الله بن أم مكتوم.

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾ [3]

(١) الآية ١٥١ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٣) من الآية ١:١٢ من سورة عبس.

نعم، إنها تذكرة وفقه لأمة القرآن ألا يعرضوا عن ضعفائهم وفقرائهم الذين امتلأت قلوبهم إيمانا ويقينا بهذا القرآن أملاً في استجابة من أعرض ونأى بجانبه. إنها تذكرة لهؤلاء الذين اصطنعوا المراء والجدل وتشكيك المؤمنين.

إنها دعوة وجهها الله سبحانه لرسوله ومن ورائه الدعاة إلى الإسلام ألا تعرضوا عن تعليم طالب العلم المخلص في طلبه، تصحيحًا لعقيدته وتثبيتًا لإيمانه، وتعليماً لأحكامه، التفاتًا وأملاً في أولئك الذين انغلقت قلوبهم عن ذكر الله والفقه في دينه.

وإذا كان القرآن قد قرر بشرية رسول الله محمد ﷺ الذي أوحي إليه هذا القرآن، وأنه يجري عليه ما يجري على سائر البشر في لوازم الحياة البشرية ومتطلباتها. فإن القرآن أعلمنا أن هذا الرسول ليس بشراً عادياً على المستوى الذي عرف بين الناس، وإنما كان إنساناً اختصه الله بما هيأه لتلقي الوحي وملاقاة الملك، وأخفى عليه ما أعده لتحمل الأمانة وأداء الرسالة الخاتمة لرسالات الله إلى خلقه، فأحاطه بعنايته منذ طفولته، فنشأ مرعياً من الله، كما تحدث القرآن. فقد قال الله تعالى:

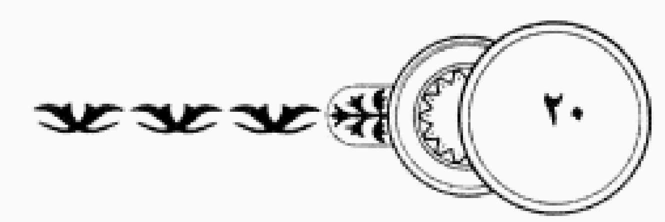
﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[1]

وأعطاه ما يكسب به مودة الناس وتقديرهم وارتباطهم به فقد قال سبحانه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[2]

(١) الآيات من ٦:٨ من سورة الضحى.

(٢) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.



ثم تعهد الله بالرعاية والحماية بعد الرسالة في قوله سبحانه:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[2]

ويسبغ الله على رسوله حمايته حين أمره بالبلاغ والإبلاغ للناس. ذلك قول الله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾[3]

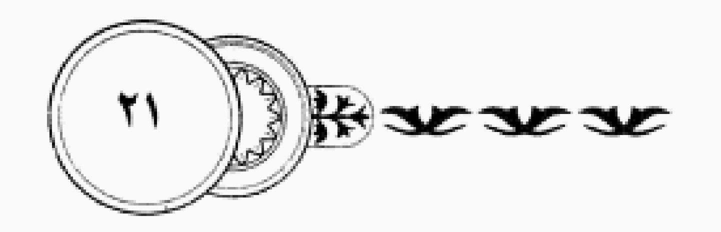
نعم، قد عصم الله محمداً ﷺ من الناس. فكم حاول المشركون التعدي عليه والقضاء عليه حيث يظهر ذلك جليًا مما دار بين رسول الله وبين أعدائه من معارك. فقد حفظه الله، ودافع عنه، ومهد له سبيل النصر والفوز.

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء.

(٢) الآية ٧٤ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ٦٧ من سورة المائدة.





أدب الدعوة كما علّم الله رسوله في القرآن

لنتلوا قول الله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾(١)

هذه مهمته في الرسالة، والدعوة إلى دينه الذي كلفه الله بإبلاغه، ثم رسم له طريق الدعوة وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾(٢)

ويقدم لنا القرآن في الكثير من الآيات لغة العرض والحوار بين الرسول وأولئك الذين تلقوا عنه الدين.

فقد قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾(٣)

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة يونس.

(٢) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) الآيات من ١١:١٥ من سورة الزمر.

كما قال سبحانه:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾[1]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١ ﴾[2]

وهكذا توالت آيات القرآن توجه النبي ﷺ إلى حوار عف مستقيم قويم الحجة.

فقد قال الله تعالى:

﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠ ﴾[3]

هذه بصائر من القرآن للدعاة إلى الله، فهم الأمناء على الدعوة إلى الإسلام. عليهم أن يتبعوا توجيهات القرآن إلى رسول الله في الحوار والمحاجة،

(١) الآية ١٥ من سورة الشورى.
(٢) الآية ٤١ من سورة يونس.
(٣) الآية ٢٠ من سورة آل عمران.

لتصل أقوالهم إلى قلوب الناس، فينيبوا إلى ربهم خشعًا سجدًا صالحين معلمين. بذلك تنجاب عنا ظلمات الحياة، وينير الله بصائرنا بالهدى ودين الحق.

ارتفعوا أيها الدعاة عن اللدد واللجاجة فيما لا نفع فيه للناس في دينهم ودنياهم.

ذلك قول الله لرسوله:

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ (١)

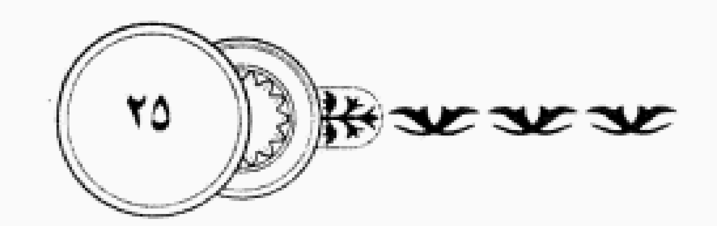
هذا القرآن قد تأدب به الرسول، وعلمه الله ما لم يكن يعلم.

فقد وجه الرسول إلى الإقبال على من آمن به وصدق رسالته مهما كان وضعه في المجتمع.

ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢)

(١) الآية ١١٢ من سورة هود.
(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.



وقول الله سبحانه:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

ونحن نتحدث بما تحدث به القرآن عن رسول الله ﷺ. نضع أمام الذين يمارون في سنة رسول الله أو يقيسونها بعقولهم. هذه الحقيقة التي قررها القرآن وهي: أنه، وإن كان الرسول إنسانًا، لكنه نبي ورسول، تلقى وحي ربه، وأمر بإبلاغه إلى الناس كافة، ليس هذا فحسب، وإنما كلفه الله ببيان وشرح وحيه وآياته.

ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

وقوله:

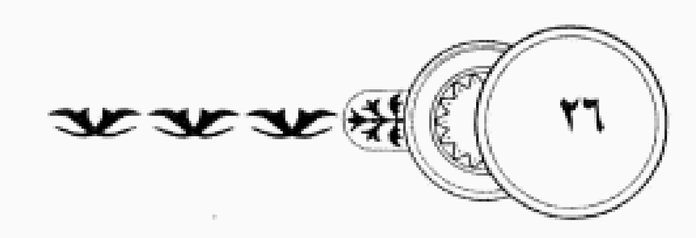
﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) من الآيتين ٢٨، ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٣) الآية ٦٤ من سورة النحل.



طاعة الرسول وعصيانه

وكانت طاعة الله، كما هو منطوق قول الله:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[1]

وآيات كثيرة تقرر ذلك وتؤكده وتجعل طاعة الرسول ﷺ طاعة لله.

ومن البديهي أن يكون عصيانه، والإعراض عن سنته قولاً أو فعلاً أو تقريراً. عصياناً لمن أرسله الله وأوحى إليه.

فهل مع هذه الأوامر القطعية يقوم من يناهض السنة وينحيها عن الأعمال، ويقول على الله وعلى الرسول بغير علم؟

على هؤلاء الذين يصطنعون الحجج أن يعلموا أن حجتهم داحضة عند ربهم وليسمعوا قول الله تعالى في القرآن:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ ﴾[2]

وقول الله سبحانه:

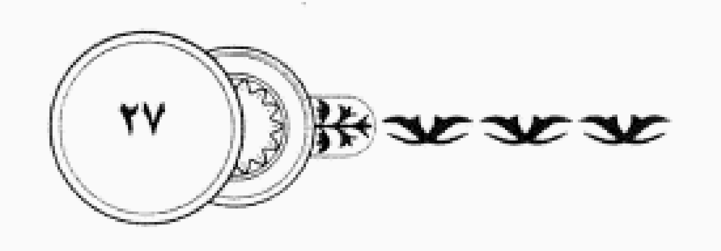
﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[3]

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝ ﴾[4]

بل وهناك قول فصل ـ ذلك قول الله تعالى:

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.
(٢) الآية ١٤ من سورة النساء.
(٣) من الآية ١٣ من سورة الأنفال.
(٤) الآية ٢٠ من سورة المجادلة.



﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

هذه سنة رسول الله يأمر القرآن بالتزامها، فإنها وحي من الله وبأمره، ليس ذلك فحسب، بل لنسمع تأديب الله للمؤمنين مع رسوله:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[2]

الأدب مع رسول الله كما يعلمنا القرآن

ويتصل بهذا قول الله تعالى:

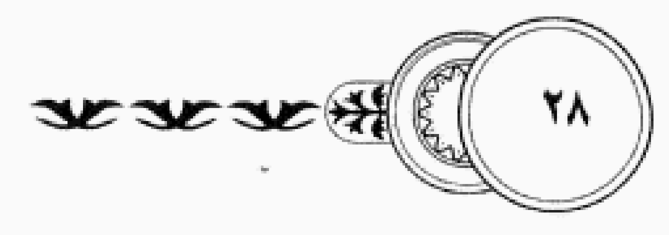
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[3]

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٦٣ من سورة النور.

(٣) الآيات من ١:٣ من سورة الحجرات.



رحمة الرسول ﷺ

قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]

لقد منَّ الله على البشرية بخاتم الرسل محمد ﷺ الذي أدبه ربه وعلّمه وزانه بكمال الخُلق، وأثنى عليه في القرآن في أكثر من موضع: (وكفى بالله شهيداً).

إذ قال سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3]

كما قال سبحانه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[4]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[5]

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ٤ من سورة القلم.

(٤) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ٦١ من سورة التوبة.

كما قال:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]

أي أن رأفة الرسول ﷺ ورحمته شاملة سابغة. وما أحسن ما قاله القاضي عياض من أن الشفقة: الخوف على وجه المحبة، والرأفة هي: شدة الرحمة، والرحمة: أي المرحمة العامة.

وأضاف: إن قوله تعالى:

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2]

معناه - والله أعلم: عزيز الوجود وبديع الجمال، منيع الجلال، منبع الكمال، حريص على منفعتكم دينًا ودنيا، بالمؤمنين منكم، ومن غيركم رءوف رحيم في الدنيا والآخرة.

وأضاف: أن فضله ﷺ أن الله أعطاه اسمين من أسمائه الحسنى فقال:

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[3]

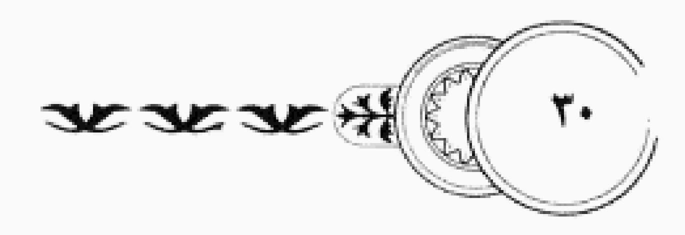
(ومن أصدق من الله حديثا)

إن الله الذي برأ النبي ﷺ هو الذي سواه ورباه، وهيأه لتلقي ختام الرسالات إلى العالمين، وهو الذي وصفه بأنه: (بالمؤمنين رءوف رحيم).

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٢، ٣) من الآية ١٢٨ من سورة التوبة.



وها هي واقعات حياته ﷺ وسلوكه قبل الرسالة وحتى لقاء ربه تفصح بأجلى بيان عن أنه ﷺ كان رؤوفًا رحيمًا، اتسع قلبه الرحيم لأعدائه، كما اتسع لأصفيائه.

ها هم خصومه من قومه قد اشتطوا في الإساءة إليه، وأسرفوا في التصدي لدعوته وفي الاعتداء عليه، ومع هذا تراه يدعو الله تعالى لهم، ويعتذر عما بدر منهم، فيقول مناجيًا ربه داعيًا إياه:

«اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»

وقد أخرج الشيخان عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أنها قالت: يا رسول الله «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟»

قال ﷺ :

"لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة. إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أفق إلا وأنا «بقرن الثعالب» - اسم موضع - وهو الآن «قرن المنازل». ميقات أهل نجد - فرفعت رأسي، فإذا سحابة قد أظلتني فنظرت، فإذا جبريل عليه السلام – فناداني، قال: إن الله سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.. فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله - تعالى - قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، قد بعثني إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين - وهما جبلان بمكة فقال ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا."

هذا مثل من رحمة الرسول - ﷺ - بهؤلاء الذين انفضوا عن قبول دعوته وآذوه وعذبوا من اتبعه. قد وسعه قلبه الرؤوف الرحيم، فرأف بهم، وأبى أن يهلكوا

معاقبة على سوء ردهم، ونظر إلى الغد نظرةً مشرقة بالأمل، ولم يقف عند حاضرهم المظلم، بل تجاوزه إلى الغد المرتقب أملاً في أن يهدي الله قلوباً تنبثق من أصلابهم إن هم استمرأوا الصد عن الإيمان بالدين الذي يدعوهم إليه.

ولقد حقق الله هذا الأمل، فكان من أبناء هؤلاء الذين حاربوا الإسلام، وآذوا رسول الله ﷺ قادة نصروا الإسلام، وفتحوا البلاد من أمثال: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف، والوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط.

وفي هذه الواقعة التي روتها السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عبرة وقدوة للدعاة إلى الله وإلى دينه تدفعهم إلى الثبات وتحمل المشاق، وتحملهم على الصبر والمثابرة وعلى ألا ييأسوا من النجاح مهما تعاظمت الصعاب، وتجمعت الأحزاب، وضاقت السبل.

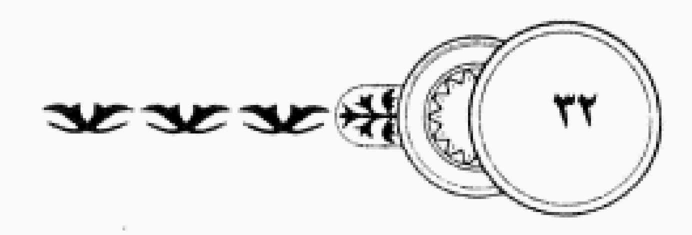
وليذكر الدعاة ما لاقاه رسول الله ﷺ والسابقون الأولون إلى الإسلام وليرتقبوا الغد، وقلوبهم مليئة بالأمل مفعمة بالرجاء.

وليخلصوا لله العمل، فما كان لله دام واتصل.

ذلك مثل من صنوف رحمة الرسول ﷺ بأعدائه ينبغي أن ندرسه وأمثاله في سيرته وسنته الشريفة للأسوة به، وأن نأخذ من إصراره على الاستغراق في تبليغ دعوته، ونشرها حتى دخل الناس في دين الله أفواجا. لنأخذ من هذا سنداً، وأملاً، ونجد في العمل طلبا للعلاج وللإصلاح:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل.



رحمة الرسالة

تحدث القرآن عن رحمة الرسالة الإسلامية وأصل هذه الرحمة، وبينها في آيات عديدة، وبأساليب متنوعة لتعليم الناس أن الإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ جاء رحيماً بعباد الله ميسرا غير معجز ولا معسر، يرفع الحرج، ويرعى الضرورات، ففي قول الله سبحانه:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(١)

وقول الله سبحانه:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(٢)

وقول الله تعالى:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾(٣)

وليس حديثنا عن رحمة الرسالة استقصاء لمجالات هذه الرحمة؛ وإنما هو تلميحات للاستذكار، لأن الرسالة كلها رحمة على ما تشير إليه آيات القرآن:

ففي قول الله تعالى:

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾(٤)

وفي قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٥)

---

(١) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٤) من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

وفي السنة الشريفة:

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

"خطب رسول الله ﷺ فقال: إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ألا إن الله قد فرض فرائض، وسن سننًا، وحد حدوداً، وأحل حلالاً وحرم حرامًا، وشرع الدين فجعله سمحًا واسعًا ولم يجعله ضيقًا"

وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "بينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه."

تلك آيات من القرآن قد بينت أن شريعة الله رحمة بالناس، وهذه مثل من سنة رسول الله ﷺ قد فصلت بعض مجالات هذه الرحمة واليسر ورفع الحرج.

ولقد شملت رحمة الرسالة كثيراً من المجالات التي جاءت فيها التكاليف، فهي في ذاتها رحيمة بالناس في كل ما جاءت به.

ففي العبادات: فرض الله ما يطيقه الناس؛ فالصلاة التي هي عماد الدين تقصر الأربع في السفر إلى اثنتين، وفي حال الخوف تُصلَّى رجالاً وركبانًا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ويسقط القيام فيها لعذر المرض، فيصليها المريض جالسًا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير هذا من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات. وفي هذا قال ﷺ: "بعثت بالحنيفية السمحة."[(١)]

وأخرج الشيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثمًا؛ فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه من شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لحرمة الله.

وفي الطهارة: فرضها بالماء، فإن تعذر كان التيمم بالتراب الطاهر.

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

وفي الصلاة: عاتب رسولُ الله ﷺ معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ حين قرأ في الصلاة بسورة البقرة والنساء، وشكا الناس من طول صلاته!! فقال الرسول ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟ (ثلاث مرات) فلولا صليت بـ (سبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى)، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة.[1]

ولقد راعى حاجات الناس وأعذارهم.

فقد أخرج الشيخان عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء، ولا يعجل حتى يفرغ منه».

وفي تأخير الصلاة إذا اشتد الحر:

أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم».

ومعناه الإذن بتأخير صلاة الظهر عن أول وقتها حتى تذهب حدة الحر، ولكن لا بد من الحرص على أدائها في الوقت المحدد، أي أن الأداء في هذه الحالة على التراخي لا على الفور.

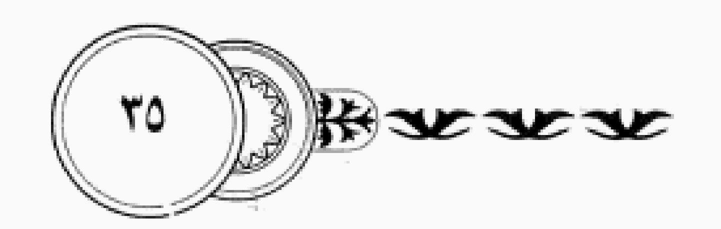
وفي المعاملات:

جاءت قواعد الإسلام رحيمة ميسرة، لا غل فيها ولا استغلال، تقوم على التعاون في مواجهة مطالب الحياة.

ومن ثم، كانت الدعوة إلى العمل والكسب الطيب مقرونة بالصلاة وكثيراً ما جاء الحث على العمل قرين الإيمان. على أنه لا يغيب عن الأذهان أن وصف العمل في القرآن بالصالح لا يعني تمحضه للعبادات المفروضة فحسب؛ بل يعني كل عمل يصلح من ذات العامل ومجتمعه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.



وفي هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم:

منها قول الله سبحانه:

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (١)

وقوله:

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢)

وقول الله سبحانه:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣)

وإذا تتبعنا مجالات التعامل في المجتمع، سنجد القرآن الكريم قد جاء بأحكامها رحيمة ميسرة. فقد نوه بالعدل والرحمة، وبالبر بالوالدين وبذي القربى وبالجيران وباليتامى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وبالضعفاء بوجه عام.

وفي السنة الشريفة الكثير الوفير من وصايا الرسول ﷺ بالرفق والرحمة في كل الأمور.

وفي العقوبات:

كانت شريعة الإسلام أخف مما سبقها من الشرائع السماوية، فالتوبة مثلاً كانت بقتل النفس كما حكى القرآن:

﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ (٤)

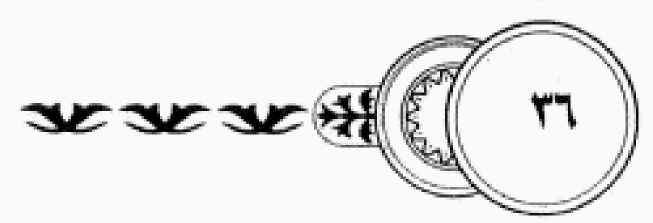
---

(١) من الآية ٨٨ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٨٢ من سورة طه.

(٣) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

(٤) من الآية ٥٤ من سورة البقرة.



أما التوبة في الإسلام، فتكون بالندم على فعل السيئات والاستغفار والعزم على عدم العودة إلى الذنوب. كما جاء في القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[1] .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة طه.

أنواع المعجزات

والمعجزات التي أظهرها الله على يد الأنبياء ترجع إلى ثلاثة أنواع:

إيجاد معدوم، أو إعدام موجود، أو تحويل حال موجود. أما إيجاد المعدوم، مثل خروج الناقة من الجبل بدعاء صالح - عليه السلام - كما أشارت الآيات:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا
فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ
أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)﴾ [1]

---

(١) الآيات من ١٤١: ١٥٩ من سورة الشعراء.

وقد أوضحت الآيات العذاب الذي أنزله الله بقوم صالح، فقال الله تعالى:

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾(١)

تلك كانت المعجزة بإيجاد معدوم حيث أخرج الله الناقة من الجبل بدعاء صالح.

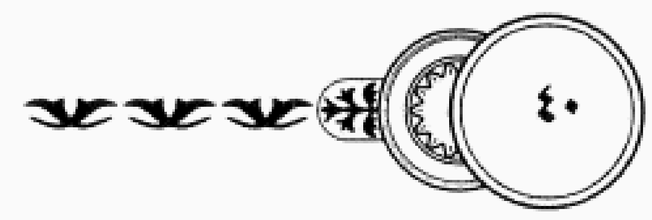
أما إعدام الموجود، فمثاله: ما كان معجزة لنبي الله عيسى - عليه السلام - فقد كان يبرىء الأكمه والأبرص وغير هذا من المعجزات التي أيده الله بها. كما جاء في الآية:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾(٢)

---

(١) الآيات من ٦٥:٦٨ من سورة هود.

(٢) الآية ٤٩ من سورة آل عمران.



فبعض معجزات عيسى كانت بإعدام الموجود، إذ إن إبراء الأكمه والأبرص إعدام لهذين المرضين والأكمه هو الذي ولد أعمى أو الممسوح العينين. والبرص هو مرض جلدي معروف.

وفي معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ تحويل حال الموجود، فقد كان يصور الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فتدب فيه الحياة، ويكون طيراً بإذن الله. كما دلت على هذه آية (سورة آل عمران) التي تلوناها. ومثاله أيضاً معجزة موسى ـ عليه السلام ـ وهى تحويل عصاه إلى حية تسعى كما جاء في القرآن في مواضع عديدة: منها قول الله تعالى:

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ ﴾ (١)

فهاتان آيتان لموسى – عليه السلام – كانتا من باب تحويل حال الموجود.

وكل معجزة كانت لنبي من الأنبياء كان مثلها لرسول الله محمد ﷺ، وأخبار هذه المعجزات الحسية ثابتة في كتب السيرة والسنة بروايات صحيحة موثقة، فقد ثبت أنه كان يمسح بيده على موضع المرض فيبرأ المريض، كما أعطى أحد أصحابه عوداً من الحطب في وقت الحرب فهزه الصحابي في يده فصار سيفا حارب به، وظل هذا السيف لدى هذا الصحابى يحارب به مع رسول الله – ﷺ – حتى حروب «الردة» في عهد أبى بكر، ثم استشهد. وهذا السيف في يده.

(١) الآيات ١٩:٢٢ من سورة طه.

المعجزات الحسية في القرآن

معجزة الإسراء والمعراج:

وقد دل عليها قول الله سبحانه:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[1]

فقد كانت هذه المعجزة مظهرًا من مظاهر التكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين وآية باهرة تدل على قدرة الله - جل وعلا - في صنع العجائب، حيث نقل الله بقدرته نبيه محمداً ﷺ من المسجد الحرام في (مكة) إلى المسجد الأقصى في (القدس)، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بين مكة والقدس حيث كانت هذه المسافة يقطعها المسافر في ذلك العصر في أربعين ليلة، ولكن الرسول قطعها في جزء من الليل كما يدل على ذلك قول الله في الآية (ليلاً) بلفظ التنكير لتقليل المدة، وهذا أبلغ في القدرة والإعجاز، ولإظهار هذه القدرة كان بدء السورة بلفظ (سبحان) الدال على كمال القدرة وبالغ الحكمة، وآية على تنزه الله - سبحانه - عن صفات المخلوقين.

حيث كان العروج به ﷺ إلى السماوات العلى معجزة حسية أخرى تالية للإسراء، حيث رأى الرسول ﷺ عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحير الألباب؛ فقد رأى جبريل - عليه السلام - على صورته عند سدرة المنتهى. كما قال الله:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾[2]

---

(١) الآية ١ من سورة الإسراء.

(٢) الآيتان ١٣و ١٤ من سورة النجم.

أما ما يذهب إليه بعض الناس من التشكيك في حدوث الإسراء والمعراج بالروح والجسد فلا سند له؛ لأنهما معجزة أخبر بها القرآن الكريم الثابت قطعاً.

ثم كيف يقع هذا الشك، وفي عصرنا قد تطورت سبل المواصلات، فقصرت المسافات بتعدد أنواع الطائرات وتفاوتها في السرعة، وهذه الصواريخ التي تجوب الفضاء لمدد متفاوتة ذلك صنع الإنسان الذي علمه الله ما لم يعلم فكيف يصنع الله الذي أتقن كل شيء، ألا له الخلق والأمر سبحانه فعال لما يريد، فينبغي أن نذعن ونؤمن بما أخبر به الله في القرآن من المعجزات التي أظهرها الله تأييداً لأنبيائه ولخاتمهم محمد ﷺ.

انشقاق القمر:

ومعجزة حسية أخرى وقعت وشاهدها الناس في وقتها، وهي انشقاق القمر.

وذلك حين طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جلية تدل على صدقه، وخصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا برسالته، فسأل الرسول ﷺ ربه أن يعطيه ما طلبوا؛ فانشق القمر نصفين، وكانت ليلة بدر. (أي تمام القمر) وبدا للناظرين نصف على (جبل الصفا) ونصف على (جبل قيقعان) المقابل له، حتى رأوا (حراء) بينهما. فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

وقال أبوجهل: اصبروا حتى يأتينا أهل البادية، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاء أهل البادية، فأخبروا بانشقاق القمر، فقال: أبوجهل والمشركون: هذا سحر مستمر ـ أي دائم ـ فأنزل الله ـ سبحانه ـ قوله:

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ ﴾[1]

(١) الآيتان ١و ٢ من سورة القمر.

ويؤكد أن انشقاق القمر وقع فعلاً، وأنه كان آية ومعجزة من المعجزات المؤيدة للرسول محمد ﷺ الظاهرة الباهرة ما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ: أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين؛ وما أخرجه الترمذي عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين، فقال رسول الله ـ ﷺ: «اشهدوا».

هذا وغيره من المعجزات، عدا المعجزة الكبرى «القرآن». إذ هو أفضل معجزات الرسول ﷺ وأكملها وأجلها وأعظمها وأبقاها إلى ما شاء الله.

القرآن – ذلك الكتاب لا ريب فيه – الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ بأفصح اللغات وأصحها وأثبتها، حال أن لم يكن كاتبًا ولا شاعرًا ولا قارئًا ولا عارفًا بطريق الكتابة.

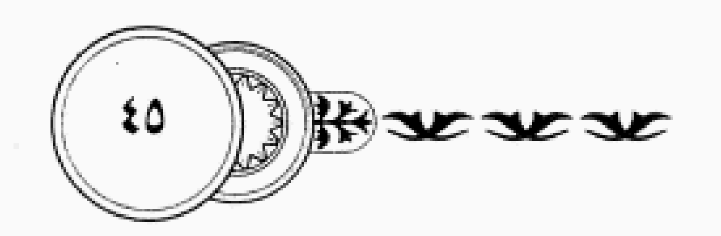
ولقد تحدى القرآن خطباء العرب وبلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فأعرضوا عن معارضته عجزًا عن الإتيان بمثله حتى قال الوليد بن المغيرة بعد أن سمع النبي ﷺ يتلو قول الله سبحانه:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾[1]

قال الوليد : إن لهذا الكلام لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر وإن لي فيه نظرًا. ولا يقول مثل هذا بشر.

---

(١) الآية ٩٠ من سورة النحل.



القرآن والأخلاق

وفي سبيل تقرير مبادئ اجتماعية:

نرى أن القرآن الكريم بعد أن أرسى قاعدة أساسية لتغيير أنماط السلوك، وحفز همة المجتمع إلى مراجعة عاداته وأعرافه التي بعدت عن النمط المشروع في الإسلام قال الله سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]

قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾[2]

وبعد أن حدد الاتجاه الصحيح بالوقفة مع النفس، نبه إلى مصادر العادات والأعراف غير المشروعة في الأعم الأغلب. فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[3]

قوله:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[4]

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ١١ من سورة الرعد.

(٣) الآية ١٢٣ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ١٦ من سورة الإسراء.

إذ تشير هاتان الآيتان إلى حقيقة اجتماعية هي أن فساد أي مجتمع إنما يكون بفساد الطبقة القادرة على التوجيه وذات القدوة والمثل، وهي في ذات الوقت - بحكم ميزاتها الذاتية - تستطيع أن تصلح ما فسد وتقوم ما اعوج، وتقيم ما ضعف إذا ما صلحت النيات، وتعاونت على البر والتقوى ومكافحة الآثام والعدوان.

وهذه الطبقة المعنية هم هؤلاء الذين يقودون المجتمع بالكلمة النافذة المعبرة عن المحاسن والمساوىء، والتي ينبغي أن تكون فاحصة باحثة عن المثل الفاضلة في المجتمع؛ فتعلي من شأنها وتحث عليها، تنبه إلى تلك المساوئ التي تشوه وجه المجتمع أدبياً واجتماعياً وسلوكياً، كما تنبه إلى أخطارها وطرق مواجهتها، وتضع كل هيئة وكل فرد في المجتمع أمام واجباته نحو مكافحة تلك المساوئ والسيئات.

وهذه الطبقة تعني: كل ذي ولاية في الأمة كما حددهم رسول الله ﷺ في قوله - الذي رواه الشيخان وغيرهما - عن ابن عمر رضي الله عنهما:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

أولو الأمر - كل في موقعه - يدخلون في نطاق هاتين الآيتين وهذا الحديث بحكم ولايتهم الأمر وتمتعهم بأسباب السلطان والقوة.

وهم بهذا أقدر على التوجيه والتلقين، والقدوة والتنفيذ صلاحًا وفسادًا واستقامة واعوجاجًا، وطاعةً ومعصيةً، وحقًا وباطلاً، وقوةً وضعفًا.

ومن ثم، كان على أولي الأمر في المجتمع بدءًا من الأسرة وولاية أمرها للوالدين، وانتهاء بالحكام. كل في موقعه أن يكونوا قدوة وأسوة حسنة - في

الاستقامة والأمانة والنزاهة والعدل والالتزام بالإسلام عقيدةً وشريعةً، أصولاً وفروعًا في كل أمور الحياة طلبًا لحياة أفضل. وفي المقابل، ما جاء في هاتين الآيتين عن أثر فئات أولي الأمر في المجتمع، وعن صلاحه وفساده، يأتي وعدُ الله عباده الصالحين بالتمكين لهم في الأرض.. ذلك ما يشير إليه قول الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(١)

إذ تشير هذه الآية إلى حقيقة اجتماعية سامية وهي:

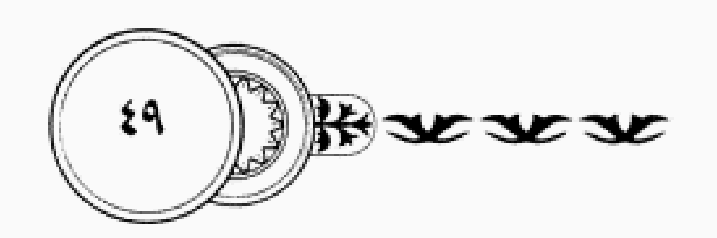
إن التمكين في الأرض تبسطًا واستمتاعًا وسلطانًا وعزةً وكرامةً وقوة ورفاهيةً، يكون من حظ المجتمع الذي يغلب على أفراده الصلاح، بمعنى التحلي بما أمر الله به من مكارم الأخلاق، وفاضل العادات، والتزام الحق والعدل، والتعاون على البر والتقوى، وفعل الخير، والعمل الصالح، ومكافحة الإثم والبغي والفواحش، وحسن تدبر الأمور والتروي فيها، واختيار الأصلح منها وإعداد العدة لكل ذلك، وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية إجمالاً نراه أوضح وأصرح في قول الله - تعالى - في (سورة الحج):

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾(٢)

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٤١ من سورة الحج.



وقوله:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾(١)

إذ تنوه هاتان الآيتان وتقرران بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأهل للتمكين في الأرض، والصالحون لإرثها والاستخلاف فيها؛ لأن مجتمعهم يقوم على الإيمان والعمل الصالح ويرتكز على الحق والعدل والخير والمساواة؛ وإلى اجتناب الآثام والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ولا يناقض هذه الحكمة العامة التي ألمحت إليها تلك الآيات بالنسبة لتمكين الله عباده الصالحين في الأرض، وجعلهم ورثتها ما هو واقع في الحياة من وجود أفراد وحكام ظالمين ومنحرفين وغير صالحين ومحاربين لله ورسله في مختلف الأزمان والأماكن تمكنوا في الأرض حكمًا وثراءً واستمتاعًا بمختلف المتع والشهوات.

ذلك لأن في القرآن آيات قررت هذا الواقع، وإلى جانبها آيات أخرى كثيرة قالت: إن هذا الواقع من باب الاختبار والاستدراج وإظهار الحجة، ومنح الفرصة للعودة إلى صراط الله المستقيم حتى إذا ما استمرأوا المعاصي، كان العقاب. وذلك مثل قول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) الآية ٥٥ من سورة النور.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا
كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ
شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ
دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

وكذلك في واقع الحياة يوجد أقوام من غير المؤمنين بالله وكتبه ورسله، أو من غير المؤمنين برسالة محمد ﷺ وبالقرآن. ومع هذا فهم متمكنون في الأرض، ولهم ثروة وسلطان وقوة ونفوذ كلمة، وهذا ما يشير إليه قول الله سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (٢)

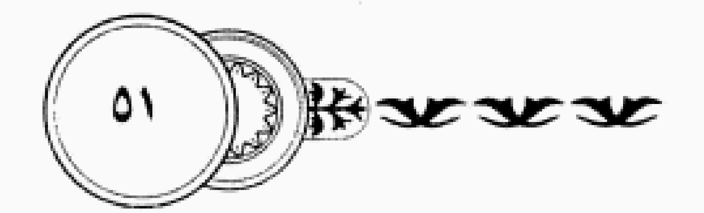
أي ينصف بعضهم بعضًا، ومن ثم فإن أهل مثل هذه القرى إذا كانوا مصلحين يتعاطون الحق ولا يتظالمون - وإن كانوا مشركين - لا يهلكهم الله بالنوازل وإنما يهلكهم إذا تظالموا.

ومن ثم قال بعض المفسرين:

إن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم وانتشار الفجور والآثام.

وإذا كان صلاح المجتمع، سياسيا واقتصاديًا واجتماعيًا وخلقيًا وعلميًا وعمرانيًا من أسباب التمكين في الأرض كسنة من سنن الله - تعالى - في خلقه؛

(١) الآيات من ٤٢:٤٥ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١١٧ من سورة هود.



فهو بالمؤمن بالله ورسله وقرآنه واليوم الآخر أقوى سببًا وقرابةً؛ لأن الصلاح بوجه عام من آثار رسالة الإسلام؛ يقوم به المؤمن باعتباره واجبًا دينيًا؛ وتكليفًا من الله سبحانه. ذلك وعد الله للمؤمنين الصالحين بقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1]

ومن الأخلاق التي حذر القرآن منها: التفرقة في الدين. ففي قول الله سبحانه:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[2]

قوله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[3]

هاتان الآيتان وغيرهما تقرران أن الدين الحق واحد لا يحتمل انقساماً، وقد احتويتا أمراً للنبي ﷺ ولأمته بالاستقامة على الحق والبعد عن طريق الفرقة والبغي والهوى. ولقد أشارت الآيتان وأمثالهما - مما جاء في هذا المبدأ الاجتماعي الإسلامي - إلى آثار التفرق في الدين من إشاعة التعصب، وإعجاب

(١) الآية ٤١ من سورة الحج.
(٢) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

كل امرىء برأيه، والتنازع والكيد، وتعطيل أوامر الله وتشويه الحق والمكابرة فيه، الأمر الذي يودي بوحدة الأمة ويهز كيانها.

ولقد ساق القرآن في مواضع عديدة مثلاً من اختلاف الأمم السابقة في دينها وعلى أنبيائها موضحًا أثر ذلك على زوال هذه الأمم.

وفي السنة أحاديث وفيرة تحذر من الانقسام،وتنبه إلى أن الطريق المستقيم واحد، من هذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه" فقد قال الله سبحانه:

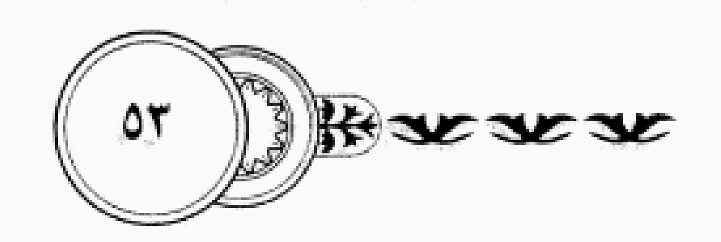
﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾(١)

وهذا – ولا شك – ينبغي أن يقود المسلمين إلى استدامة النظر فيما آلت إليه خلافاتهم، وظهور الفرق والجماعات التي صرفت وتصرف جهود الأمة عن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وذلك بإذاعتها أفكاراً وأحكامًا تزرع الخلافات وتنميها، وتشغل المجتمع بقضايا فكرية باسم الإسلام وشريعته، هو في غنى عن إثارتها.

وواجب الأمة أن تتجاوز الخلافات في تفسير النصوص، فلا تجعلها قضية أساسية وحزبية دينية، وعلى هؤلاء الذين اعتزلوا المجتمع، وانغلقوا على أفهام في الدين غير رشيدة، أن يتلقوا العلم عن أهله، وألا يتبعوا الهوى. فقد قال الله سبحانه :

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.



﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[١]

ولعلنا حين نتابع آيات القرآن في الأخلاق العامة نجد أنها تقرر:

١- أن صلاح المجتمع وفساده منوط بوجه عام بما تكون عليه أخلاق أفراده وأولي الأمر فيه من صلاح وفساد.

٢- وأن التمكين في الأرض من حظ المجتمع الذي يتكون في الغالب من أفراد صالحين متمسكين بمكارم الأخلاق وفاضل العبادات وحسن الاستعداد والتزام الحق والعدل، وما يشذ في الواقع عن هذه القاعدة هو من قبيل الاختبار والإهمال والاستدراج.

٣- وأن فساد الأخلاق والعادات غالبًا ما يكون وافدًا من خارج الأمة بتقليد للغير أو بغزو عسكري أو ثقافي. وقد أخبر القرآن في هذا الصدد بقول ملكة سبأ:

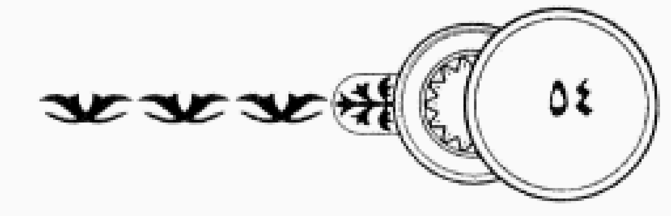
﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[٢]

فالأخلاق والعادات الوافدة الفاسدة في أغلب الأحوال تسود وتؤتي ثمارها في إضعاف وحدة المجتمع، وقطع روابطه الاجتماعية والدينية والسياسية، وهذا لا يتأتى دفعه إلا باستمساك المجتمع بدينه وأخلاقه وسماته؛ فلا تجرفه عادات وأعراف من تغلبوا عليه سياسيًا أو عسكريًا أو ثقافيًا أو اقتصاديًا وعندئذ يندحر الباطل مهما برزت مظاهره، ومتى صمد الحق وثبت.

---

(١) من الآية ١١٩ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٣٤ من سورة النمل.



٤- وهذا يوجب على المجتمع الإسلامي أن يستلهم عاداته وتقاليده من عقيدته وشريعته، وأن يكون هدفه هو الحق والعدل والخير والمصلحة العامة، وما يختلف عليه يرد إلى الله ورسوله كما أمر القرآن في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾(١)

٥- أوجب القرآن على الناس التروي والأناة في رواية الأنباء واستماعها خشية النية الخبيثة والقصد السيء،ولما يترتب على الإسرا ع في تصديقها وإذاعتها من المفاسد والأضرار العامة والخاصة. وأبلغ صورة لبشاعة التسرع في نقل الأنباء حديث الإفك الذي جاء في سورة النور في الآيات التي بدأت بقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾(٢)

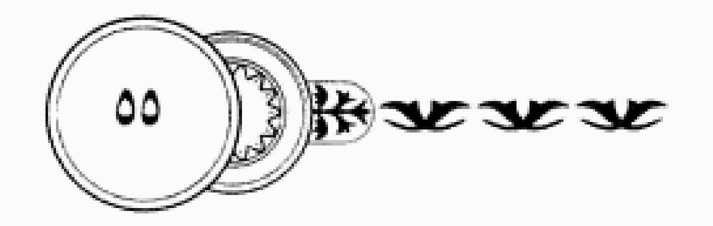
وأنهت الآيات هذا الحديث الخطير بقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(٣)

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٢) الآية ١١ من سورة النور.

(٣) الآية ١٩ من سورة النور.



فعلى هؤلاء الذين يخترعون أخبار السوء ويذيعونها أن يرعوا الله فيما أمر به، وفيما نهى عنه. ذلك أن الله سبحانه هو القائل:

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾[1]

والشائعات الضارة، أو كل قول غير صحيح ـ أيًا كان مظهره وسواء أكان صالحًا أم طالحًا ـ إذا خالف الواقع فهو فتنة عامة، على المجتمع أن يحذرها وأن يوقفها، ذلك قول الله سبحانه:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥ ﴾[2]

وهذه الآية تنبه إلى خطر آفات اللسان، لاسيما في ظروف الفتن وشائعات السوء، لما يترتب عليها من أضرار عامة وخاصة.

على المجتمع الإسلامي أن يقف من الشائعات ومثيريها موقفًا حازمًا، وأن يتضامن أفراده وهيئاته في قمعها وتفادي آثارها.

٦- ثم إن القرآن حذر من التفرق في الدين جريًا وراء الهوى والمطامع السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، حذرًا من أن يؤدي التفرق في الدين إلى المفاسد الاجتماعية التي لا تحمد عقباها، أو التي لا يحسن السكوت عليها.

---

(١) الآية ١٨ من سورة ق.

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

وعلى أولي الأمر في الأمة - بدءًا من الأسرة - بذل الجهد للقضاء على الانقسامات الدينية، والخلافات التي نشأت، أو تنشأ - من الخلافات المذهبية في الفقه أو في العقيدة.

هذه مبادىء من أخلاق القرآن التي أهداها الله إلى أمة الإسلام لتكون أمةً وسطا يقتدى بها ويهتدى.

الأمانات المضيعة

ونحن نتابع الحديث عن القرآن والأخلاق نتحدث عن نوع الأمانات المضيعة في هذا العصر.

إن الأمانة بوجه عام قد أمر الله بالوفاء بها. فقال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾(١)

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾(٢)

ومن الأمانات المضيعة في عصرنا الأولاد الذين قال الله في شأنهم:

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾(٣)

فالأولاد من الأمانات المنوطة بالإنسان وبالوالدين بوجه خاص، فالآباء والأمهات والمربون ـ أيًا كانت مواقعهم ـ هم المسؤولون عن الأولاد، فإن أحسنوا إليهم بالتربية الحسنة في نطاق الدين كانت لهم المثوبة، وإن أساءوا وأهملوا استحقوا العقوبة، وكانت حياة هؤلاء وأولئك غير مستقيمة، وصار المجتمع غير إنساني.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآيتين ٤٩ و٥٠ من سورة الشورى.

ثم إن الأولاد يخرجون إلى هذه الحياة على الفطرة كما في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة:

"كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه اللذان يهودانه أو ينصرانه".

فالآباء والمربون هم الذين يحملون عبء توجيه الأولاد، وعليهم أن ينموا لديهم الفطرة التي فطرهم الله عليها، ويوجهوها إلى الخير والخلق القويم حتى ينشؤوا على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ويعود ذلك بالخير على مجتمعهم وأمتهم.

هذا.. ولا يخفى أن الأمة إنما تقوى وتنهض بقوة أبنائها، ومتانة بنيانهم، ولا مراء في أن الشباب هم عدة الأمة وعتادها إذ تفيض قلوبهم وطنية وشجاعة، وبهم يتطور المجتمع وصولاً إلى تحقيق غاياته في التقدم والقوة مع الرفاهية والعدل في ظل عقيدة سليمة قوية تملأ القلوب بالله ورسله وكتبه فكرًا وعملاً.

ومن هنا كان ثناء القرآن على نفر من الشباب عاش ملتزما بالإيمان الكامل فكانوا قدوة صالحة تضرب بهم الأمثال.

هؤلاء المثل الصالحة من الشباب أشار إليهم الله سبحانه:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾[1]

والشباب نجده دائماً ـ وفي الأعم الأغلب ـ يبادر إلى سلوك طريق الهداية متى وجدوا القدوة والدعوة الرشيدة، لأنهم لم ينغمسوا بعد في رذائل المجتمع؛ ولأن لهم من شبابهم قوة العزم والإرادة التي تدفعهم إلى تجاوز الصعاب والمخاطر متى آمنوا واعتقدوا أن ذلك هو صواب الطريق.

وحين نتلوا القرآن الكريم نجد فيه مثلاً لهؤلاء الشباب ذوي العزم:

فهذا لوط ـ عليه السلام ـ كان من الشباب الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام.

---

(١) الآية ١٣ من سورة الكهف.

فقال تعالى:

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾(1)

وقد سبق إلى الإيمان بموسى جماعة من الشباب. فكانوا له عضداً وسنداً.

ففي قوله:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ ﴾(2)

وهذا إسماعيل عليه السلام وهو شاب أخبره أبوه إبراهيم ـ عليه السلام باختبار الله لهما بذبحه، قال كما جاء في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(3)

ومن ثم استحق ثناء الله عليه في قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾(4)

وفي الإسلام مثل من الشباب كثيرة:

فهذا سعد بن أبي وقاص أسلم وهو شاب، وقد حاول أبواه رده عن دينه، وجاهداه رغبة في صرفه عن الإسلام، فأوضح الله الطريق في محل هذا في قوله سبحانه:

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾(5)

---

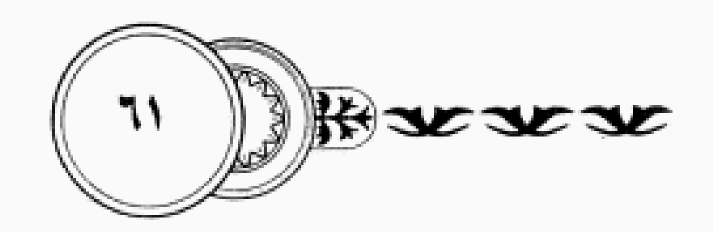
(1) الآية ٢٦ من سورة العنكبوت.

(2) من الآية ٨٣ من سورة يونس.

(3) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(4) الآية ٥٤ من سورة مريم.

(5) من الآية ٨ من سورة العنكبوت.



وهذا علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ كانا من أول الشباب المصدقين برسالة محمد ﷺ. كما روت هذا كتب السيرة، مؤكدة صدق عزيمتهما على الإيمان بهذه الرسالة وبرسولها، متابعين للدعوة يقيمان شعائرها، ويلقيان في سبيل الاستمساك بالدين ما لقي غيرهما من الإيذاء، فما وهنا وما استكانا كل ذلك بعزم وإرادة الشباب.

وهذا يوسف عليه السلام،كان شابا تعرض في حياته لتجارب بالغة القسوة والشدة فما خرجت به عن نقائه وطهارته بل ازداد بها صفاء ومعرفة بربه.

والعلم للشباب زاد وهدى، لم يستنكف عن طلبه والارتحال في سبيله الأنبياء كما جاء في صورة الكهف عن موسى – عليه السلام:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾[1]

ومع هذا، فقد صادف الأنبياء نماذج من الشباب على غير الهدى والاستقامة عناداً وإصراراً على الفساد.

فهذا الشاب ابن نوح عليه السلام خالف أباه وعصاه فكان من الهالكين، ولم يعذبه أبوه، بل اعتذر إلى ربه وطلب المغفرة والشفاعة له.

وحين نعود إلى تاريخ المسلمين نجد المثل الصالحة في شباب المسلمين وقت الدعوة. من هؤلاء: علي بن أبي طالب وموقفه في الهجرة وشجاعته في قتال يوم

(١) الأيتان ٦٥ و٦٦ من سورة الكهف.

«بدر» و«الخندق»، وعبد الله بن العباس وعلومه ومعارفه وصدق نظره وفهمه للقرآن والسنة، وعبد الله بن أبي بكر ومهمته في «الهجرة»، وأسماء بنت أبي بكر وما صنعت وتحملت من مشقات وتعذيب في «الهجرة»، وهذا زيد بن ثابت كان كاتبًا للوحي ـ وسنه إحدى عشرة سنة.

الدين والأخلاق

ولا نزاع في أن الدين عقيدة لازمة للإنسان أيًا كان هذا الدين وأيًا كانت تعاليمه. وللإسلام مع الأخلاق صلة وثيقة فالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق.

ومفهوم الأخلاق في الإسلام مستمد من القرآن، ومن تطبيق رسول الإسلام محمد ﷺ قولاً وعملاً. ومن هنا، كان للأخلاق الإسلامية ذاتيتها الخاصة وهي بهذا تتغاير أساسًا مع الأخلاق في الأديان الأخرى. ذلك:

أ- إن الإسلام ربط بين الدين والأخلاق بما جعل الأخلاق من عناصر الاقتصاد والسياسة والتربية والاجتماع، وكل ما يمس وينظم حياة الفرد والمجتمع.

ب- والأخلاق في الإسلام تقوم على مبدأ التقوى والنية، أي على الإقبال على ما أحله الله، واجتناب ما حرمه.

جـ- وأخلاق القرآن أخلاق اجتماعية. فالقرآن ينظر إلى الفرد في ضوء المجتمع، ومصلحة المجتمع هي الأولى عند التعارض.

الأخلاق العملية في القرآن

نرى القرآن الكريم قد وجه إلى الفرد الأوامر التي يصلح بها نفسه ومجتمعه؛ بل وتصلحه مع ربه وخالقه، وبهذا تنوعت هذه الأوامر إلى ما يتعلق بالتعليم العام؛ فأوجب على الإنسان أن يتوجه بالسؤال عما يجهله إلى من عنده علم به. وفيما يتعلق بأحكام الدين يكون المسؤول عنها ممن تأهلوا للفتوى. كما جاء في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1]

ودعا القرآن فيما يتعلق بالجهد الأخلاقي إلى طهارة النفس بالمقارنة بين الطهارة والتزكية، وبين الدنس والفجور، والجزاء المرتب لكل وصف.

ومن الأوامر الأخلاقية: الاستقامة والعفة والاحتشام والأخذ بأسباب كل ذلك من غض البصر عما حرم الله وبالتحكم في الأهواء، وبالامتناع عن شهوتي البطن والفرج، إما عبادة لله سبحانه مفروضة: كالصوم في شهر رمضان، وإما منعا من الأذى: كتحريم الزنا ومقدماته.

كما أمر القرآن بكظم الغيظ وبالعفو وبالصدق وباللطف والتواضع، وبالتحفظ في الأحكام، وباجتناب سوء الظن، وبالصبر والثبات في مواطن الشدة والبأس، وبالقدوة الحسنة وبالاعتدال في كل الأمور، وبالأعمال الصالحة والتسابق إلى الخيرات والفضائل وبحسن الاستماع والاتباع، وبإخلاص السرائر.

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

وفي مقابل هذه الأوامر،نهى القرآن الكريم الفرد عن أن يقتل نفسه،أو يفسد أي عضو من أعضائه،كما نهى عن الكذب والنفاق وكل أفعال تناقض الأقوال، وعن البخل والإسراف والرياء والاحتيال، والعجب، وعن التفاخر بالمال وبالعلم وبالقوة، ونهى عن الحسد والطمع،وعن الحزن على ما فات، وعن الفرح بما هو آت،ونهى عن الزنا.

والقرآن في سبيل الوقاية من هذه الجريمة التي تؤدي إلى الانحلال الأخلاقي في المجتمع اتخذ اجراءات وقائية.. فحرم ارتداء المرأة للزي الفاضح خارج بيتها. وأمر بغض البصر، وحرم القذف، ونهى عن دخول بيوت الآخرين دون استئذان أهلها، وحث في المقابل على الزواج تمكينا للصلة المشروعة بين الذكر والأنثى.

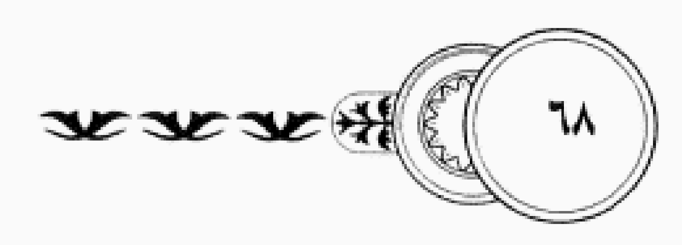
كما نهى القرآن عن تعاطي الخمر وكل الخبائث التي ظهرت أو تظهر: كالمخدرات، وعن تعاطي الكسب الخبيث: كالربا والرهان والسرقة والغش في التعامل.

وبين الأوامر والنواهي مباحات يتمتع بها الفرد دون إسراف أو تقتير. ثم بعد كل هذا كانت إجازة المخالفة للإضطرار رخصة مقدرة بقدرها.

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (١)

ولا تمتد الضرورة عدوانا على حقوق الآخرين.

(١) من الآية ١٧٣ من سورة البقرة.



وفي شأن الأسرة:

بين القرآن واجبات كل من الفروع والأصول، وأمر بالإحسان إلى الوالدين وطاعتهما واحترامهما، واحترام حياة الأولاد حسبما جاء مفصلاً في سورة النساء.

ولقد حث القرآن على التربية الأخلاقية للأولاد وللأسرة بوجه عام. وبين كذلك دستور الحياة الزوجية؛ ففصل العلاقات المحرمة ورغب في الزواج بخصال مأمور بها وأخرى مستحبة، واشترط الرضا المطلق في الزواج، وجعل الصداق منحة من الله، وأباح تعدد الزواج بشروط، وجعل رباط الزوجية ميثاقًا غليظًا، وغايات الزواج سلامًا داخليًا ومودة ورحمة واستدامة للنوع الإنساني وساوى بين الزوجين وأرجع الأمر بينهما إلى التشاور والتراضي والتعامل الإنساني، وأوصى القرآن بمحاولة الصلح إذا وقع نزاع بين الزوجين. فإن وقعت الفرقة، ترتبت حقوق وواجبات للمطلقة وللأولاد، وواجبات عليها كذلك وحقوق للمطلق.

ونظم القرآن كذلك الصلات بين الأقارب خاصة الإرث، حيث حدد الورثة والأنصباء وقواعد القسمة، وجعل الإرث فضلاً من الله وحقًا للوارث.

ولقد حظر القرآن قتل الإنسان - أي إنسان - إلا بحق، وحرم السرقة والفسوق والعصيان والربا والاختلاس، وكل تملك غير مشروع، وأكل مال اليتيم، وخيانة الأمانة، والإيذاء البدني والنفسي بلا مبرر، والظلم والتعاون على الشر والعدوان، والدفاع عن الخونة والغدر والخداع، وغش القضاة وإفسادهم وشهادة الزور، وكتمان الحق وقول السوء، وسوء معاملة اليتامى والفقراء واحتقار الناس، والتجسس والسخرية بالغير والافتراء والغيبة والنميمة، وسوء القصد وسرعة تصديقه، والقذف، والسكوت عن الشر العام والمنكرات، والقعود عن النصح.

وفي مقابل هذه المحظورات كان الأمر: بالتخلق بالأمانة والوفاء بها وبالوعود والعهود والعقود، وبأداء الشهادة الصادقة وإصلاح ذات البين والتشفع الحسن - لا للأشرار ولا للإضرار - والتراحم المتبادل، واستثمار مال اليتيم لصالحه والحفاظ عليه، والعفو دون تجاهل للإساءة في كل حال، والدعوة إلى الخير وإلى السيئة بالحسنة، وإلى نشر العلم والعدل والأخوة والكرم والحب والإحسان بشروطه في مصارف محددة وغايات مرتقبة، ونوع العطاء وطريق الإعطاء مع توجيه وترغيب في السخاء، وذم كنز المال وحبسه عن التداول، والاستثمار المشروع وذم البخل والقعود عن إغاثة المحتاج.

ولأمن المجتمع نفسياً وأخلاقياً ومادياً، وضع القرآن قواعد الأدب الأخلاقي: فأمر بالاستئذان قبل الدخول على الغير، وبعدم مناداة الكبار من الخارج، وبخفض الصوت، وبالتحية عند الدخول وعند اللقاء وبرد التحية بأحسن منها، وبحسن الجلسة وبالتحدث في المجالس بالخير، وبانتقاء أطيب العبارات بالاستئذان عند الانصراف من المجلس.

الأخلاق العملية للدولة

ولقد أوجب القرآن على الحكام مشاورة الشعب

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (١)

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢)

كما أوجب الحكم بالعدل وإقرار النظام وصون الأمن والأموال العامة وعدم المساس بها إلا في مصارفها.

وجعل لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي حرية مشروعة فيما يمس عقيدتهم الذاتية.

وأوجب على الشعب النظام والطاعة لأولي الأمر في غير معصية الله تعالى وأمر القرآن بالاتحاد حول المثل العليا والتشاور في القضايا العامة والإعداد والاستعداد للدفاع العام، وعدم نشر الشائعات والمرجفات التي تؤدي إلى شيوع جو الهزيمة والنفاق وضرورة التثبت من الأنباء والرجوع في شأنها إلى المصادر المسؤولة وتجنب موالاة الأعداء أو التعامل معهم ما دامت العداوة قائمة.

وفي صدد العلاقات الخارجية للدولة:

في الأحوال العادية:

أمر القرآن بالاهتمام بالسلام العام وبالدعوة إليه بالكلمة الطيبة دون إكراه ولا إثارة للكراهية وترك الاستبداد والفساد وترك المساس بأمن المحايدين وحسن الجوار والبر بالمسلمين.

---

(١) من الآية ١٥٩ من آل عمران.

(١) من الآية ٣٨ من سورة الشورى.

مفاهيم حول القرآن

التفريط ـ الغلو

في سورة طه قول الله سبحانه في شأن موسى وهارون ـ عليهما السلام:

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾[1]

وفي سورة الزمر:

﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[2]

وفي سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾[3]

وفي سورة المائدة:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾[4]

وفي سورة الأعراف:

﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾[5]

في اللغة: يقال: فَرَّط في الأمر تفريطًا: أي قصر فيه وضيَّعه. وأفرط إفراطًا: أسرف وجاوز الحد.

---

(١) الآية ٤٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ١٧١ من سورة النساء.

(٤) من الآية ٧٧ من سورة المائدة.

(٥) من الآية ٣١ من سورة الأعراف.

كما يقال: غلا بسهمه غلواً: رمى به أقصى الغاية، وغلا في الدين غلواً: أفرط وشدد حتى جاوز الحد.

ويقال كذلك: أسرف إسرافًا إذا جاوز القصد.

الإسراف في الأكل والشرب بمعنى: تجاوز حد الاعتدال - يجلب الداء وقد يقتل.

الإسراف في الجوع والعطش تفريط قد يوقع في السقم وقد يقتل.. والوسط النافع هو: الاعتدال من غير إسراف في الزيادة ولا في النقصان.

والاعتدال في الطعام والشراب له مراتب: عليا - ووسطى - ودنيا:

فالعليا: أرشد إليها الرسول ﷺ في قوله ضمن الحديث الذي رواه الترمذي عن المقداد بن معد يكرب:

«.. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه».

والوسطى: ما زاد عن اللقيمات اللواتي يقمن الصلب.

والدنيا: هي التي بينها رسول الله بقوله:

«فإن كان ولا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

الإسراف في الكد والعمل دون راحة: إفراط يؤدي إلى المرض والهلاك.

الإسراف في الراحة والكسل وترك العمل: تفريط في حقوق الجسم والنفس ضار بالصحة وقد يهلك صاحبه.

والوسط النافع: هو الاعتدال من غير إسراف في بذل الجهد والإسراف في الإخلاد إلى الراحة وترك العمل.

والاعتدال مراتب:

أدناها أداء العمل الواجب، وأوسطها أداء العمل المبرر الزائد على الواجب. وأعلاها تجويد العمل وإحسانه وهو: العمل الكامل الذي يخلو من اللهو ومن اللعب

مع أخذ القسط المناسب من الراحة ومن الترويح عن النفس. ففي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة".

قال الإمام النووي تعليقاً على هذا الحديث:

ومعناه ـ استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم؛ كما أن المسافر الحاذق يسير في أول النهار وفي آخره وفي جزء من آخر الليل. ويستريح هو ودابته في غيرها؛ فيصل إلى المقصود بغير تعب. والله أعلم. [١]

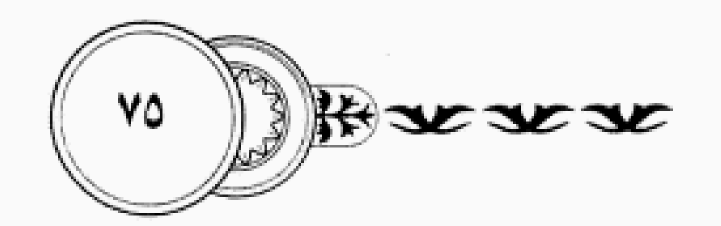
وفي الأثر: روحوا القلوب ساعة فساعة، فإن القلوب إذا تعبت كلت، وإذا كلت ملت.

الإسراف في الحب: غلو ضار قد يؤدي إلى هلاك صاحبه، كما أن الإسراف في ضبط العاطفة: تفريط قد يوقع صاحبه في جفاف العاطفة التي تؤدي إلى الأنانية. فالكراهية والبغض الضار.

والوسط النافع هو: الاعتدال في غير إسراف في الحب ولا تضييق في ضبط العاطفة كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي والبيهقي وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهم:

"أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما".

(١) رياض الصالحين للنووي٤ جـ١ص٥٤ .



والاعتدال في الحب مراتب:

أدناها: مرتبة الحب الواجب

وأوسطها: مرتبة الحب المبرور

وأعلاها: الحب في الله

وما هو دون المرتبة الدنيا تفريط وما هو بعد المرتبة العليا منحدر إلى الغلو الممقوت.

التفريط في الدين

يقع التفريط في الدين بالتخلي عن أوامر الله ونواهيه، وباستباحة المحرمات وبالنقص من حقوق الوالدين وذوي القربى والجيران، أو بمجافاة تلك الحقوق وإهمالها، ويكون هذا بسبب ضعف الانتماء إلى الدين والولاء له، أو انعدامهما بسبب تناقص الإيمان. والتفريط في الدين - إذا لم يصل إلى مستوى الجحود - كان من باب اتباع الهوى وإيثار الشهوات؛ وقد يؤدي إلى مستوى الرغبة في الفجور والانطلاق في المعاصي والآثام.

الغلو في الدين:

قد يقع الغلو في الدين بتجاوز حدود الله فيه، توسعًا فيما أمر الله به أو نهى عنه، وتزايداً عما قدَّره الشرع.

ويكون الغلو في الدين: بسبب المبالغة في الاندفاع بقوة دون بصيرة طلبًا لنوال أعلى الدرجات في الدين، واحتلال أرفع المنازل، وغالبا ما يوافق هذا الاندفاع حركة متسرعة، واضطراب في الرؤية والفكر، وفساد في تصور الحقيقة.

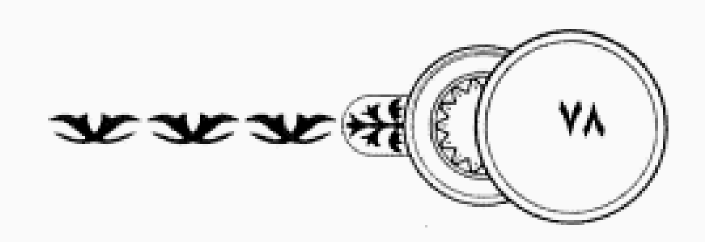
وقد يكون الغلو في الدين بسبب سوء فهم حقيقة الدين، إما من اجتهادات ذات المغالي أو من اجتهادات معلمه ورائده الذي تلقى منه هذه المغالاة. ومنه: إدخال الرأي الشخصي في قضايا الدين وأحكامه وشرائعه دون أن يتأهل لذلك بالعلوم والأدوات المناسبة. وقد يكون الغلو في الدين بسبب الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقدير عند العامة الذين قد يرون في الغلو في الدين ارتقاء في المراتب.. ولا يفهمون أن كمال التدين بالتزام حدود الله دون تفريط أو غلو.

وبعد الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقدير، تأتي رغبات أخرى: منها منافع دنيوية مالية وغيرها. وبعض الغلو في الدين يكون بمثابة ستار لإخفاء ارتكاب معاصي من كبائر الآثام.

وبعض الغلاة في الدين غير مخلصين في التدين؛ بل ويعملون على إفساد مفاهيم الدين والانحراف عنها.

ومن ثم كان الغلو في الدين خروجًا عن حدود الله ودائمًا يصحب الغلو في الدين تعصب وهوى جامح من تلبس إبليس.

وكل من التفريط والغلو في الدين يقع في العقائد في الأحكام الشرعية وفي السلوك الديني وفي الولاء للدين.



التفريط والغلو في العقائد

العقيدة الإسلامية ذات حدود؛ بمعنى أن لها بدايات ونهايات وعناصر محددة. ويقع التفريط في العقائد أو في المفاهيم الأساسية بالتهاون والتسامح في الأخذ بها، إما بتوسيع حدودها أو بتغيير صفاتها أو شروطها أو أركانها.

هذا التعاون من شأنه أن يفسد العقائد الصحيحة والمفاهيم القويمة. ومن ثم فلا يجوز التهاون في عقيدة ثابتة شرعًا أو عقلاً بصيغة قطعية كالإيمان بالله تعالى وبصفاته. وكمالاته وأسمائه الحسنى، والإيمان بالملائكة والجن وبسائر الأخبار القطعية من أنباء الغيب: الحاضر أو الماضي، أو الآتي، وكذلك ما جاءت به الأدلة القطعية في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ كالإيمان بكل ما تواتر عن رسول الله ﷺ، وثبت بصفة قطعية. وفي مقدمة هذا: القرآن الكريم الشامل لكل آية منه وجزء آية، والشامل لكل قراءاته المتواترة.

وبوجه عام لا يجوز التفريط في أية عقيدة، يحكم شرعا على منكرها بالكفر والفسق.. ولا يجوز كذلك التفريط في المفاهيم الدينية المنبثة في كتاب الله، أو السنة الثابتة؛ كمفاهيم سنن الله في الكون، أو في التكاليف، أو الجزاء: مثوبة وعقوبة، وكالمفاهيم المتصلة بالأخلاق وبالتشريع.

ولا يغيب عن البال أن التهاون في الواجبات والتفريط فيها يؤدي إلى نسيانها، والإعراض عن ذكر الله. وهذا ما جاء في شأنه قول الله سبحانه وتعالى:

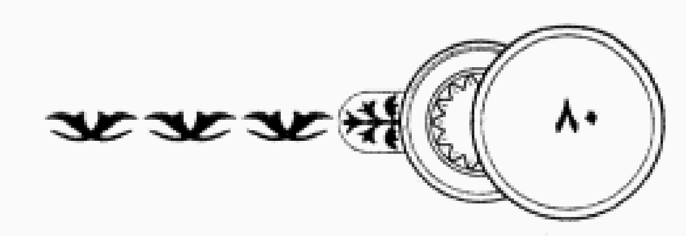
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ
﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا
فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١)

فالإنسان الذي تحدثت هذه الآيات عنه كان مؤمنا فأعرض عن ذكر الله فنسي ربه فعاقبه بالضنك في المعيشة في الدنيا، وهو ضيق وعذاب نفسي، ويحشر يوم القيامة أعمى كالكافرين.

ومن ثم؛ فالنسيان الناشىء عن الإهمال والتهاون والتقصير نسيان يؤاخذ الله عليه، وهو أمر يقتضيه العدل والحق.

---

(١) الآيات من ١٢٤:١٢٦ من سورة طه.



الغلو في العقائد والمفاهيم

ويقع هذا بمجاوزة حد الحق فيها؛ بدافع المبالغة الزائدة عما ينبغي، وهذا التجاوز لا يكون إلا خروجاً إلى الباطل.

ومن الغلو اللجوء إلى الدفاع عن العقائد والمفاهيم الدينية وشرحها بالحجج الباطلة والأكاذيب؛ ذلك لأن الحق لا ينصر بالباطل؛ وإنما الهداية إلى الحق يجب أن تكون بالحق وليس بالباطل.

وإلى هذا يشير قول الله تعالى ثناءً على الدعاة إلى الله:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾(1)

أي أنهم يهدون إلى دين الله وصراط الله بالحق لا بالباطل، فلا يتخذون الباطل وسيلة يهدون بها إلى دين الله وصراطه.

وهم أيضا يعدلون في أحكامهم مع الناس بالاستناد إلى قواعد قويمة؛ فهم بالحق يعدلون.

وقد يكون الغلو في العقائد والمفاهيم الدينية مبعثه وسوسة الشياطين من الجن والإنس؛ فيندفع هؤلاء الغلاة في باطلهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وهؤلاء وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾(2)

---

(١) الآية ١٨١ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات من ١٠٢:١٠٥ من سورة الكهف.

فالغلاة قد ضل سعيهم إذ هم بغلوهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وقد يدخلون في صنف الأخسرين أعمالاً إذا كان غلوهم قد أخرجهم عن الدين الحق والمفهوم الحق.

وقد يقع الغلو في الدين عن طمع في مصلحة دنيوية، وقد يكون مكرًا بالدين وأهله من شياطين الإنس الذين يدخلون في الدين نفاقًا ليفسدوه من داخله.

ومثاله واقع لدى بعض الفرق في شأن (علي بن أبي طالب) وذريته - رضي الله عنهم - بادعاء العصمة التشريعية، وغيرها كغلو بعض الفرق أيضًا بالنسبة لبعض صفات الله سبحانه وتعالى كالقدرية والمجسمة وغيرها.

التفريط والغلو في الأحكام الشرعية

الأحكام التشريعية الدينية في الإسلام حقائق ذات حدود ربانية غايتها تنظيم الطاعة لله ولرسوله وتجويدها، وهي موجهة إلى المكلفين فلا يجوز النقض فيها عما شرعه الله ورسوله إلا بإذن شرعي.

وهذه الأحكام تفهم بالنص الصريح عليها، أو بفحوى النص، أو دلالته الضمنية أو بالقياس على ما ثبت في النص، أو بكونه نوعًا من مشمولات قاعدة كلية عامة من قواعد الإسلام، كقاعدة وجوب الالتزام بالحق والعدل في الحكم والقضاء بين الناس، وكقاعدة تحريم أكل أموال الناس بالباطل وكقاعدة تحريم ما غلب ضرره على نفعه، وكقاعدة: إن الأصل في الأشياء التي لا ضرر فيها الإباحة.

ومن أحكام الله وجوب طاعة من أمر الله بطاعته من الناس، إذا كان أمره أو نهيه في قضايا أذن الله له فيها بالأمر أو النهي، وهذا إنما يكون فيما لم ينزل الله فيه حكما تكليفيًا بأمر أو نهي، ولم يرد عن رسول الله ﷺ حكم فيه بطريق ثابت صحيح، ولم يجعل الله ورسوله فيه للناس حقوقا خاصة يحرم العدوان عليها: كحرمة الأنفس والأموال والأعراض.

وإذا كانت الفرائض الدينية أمورًا واضحات لا يجوز تضييعها. أو المحرمات كذلك أمورًا واضحات لا يحل انتهاكها؛ فإن لأحكام الله ورسوله - من بعد الفرائض والمحرمات - حدودًا لا يجوز تخطيها ولا تجاوزها.

روى الدار قطني وغيره عن أبي ثعلبة الخشني أن النبي ﷺ قال:

"إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم، غير نسيان فلا تبحثوا عنها" قال النووي هذا (حديث حسن).

ولقد وصف القرآن بعض ما جاء به من أحكام بأنها (حدود الله) ليفهم الناس أن سائر ما أنزل الله من أحكام تشريعية تدخل تحت هذا العنوان (حدود الله).

نجد ذكر الله لذلك عقب ذكر أحكام تتعلق بالصوم والاعتكاف في المساجد إذ قال جل في علاه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (١)

وقد نهى هنا عن الاقتراب من حدود الله نهي إرشاد؛ لأن من حام حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه.

وفي (سورة البقرة) أيضا أحكام النفقة والقتال في سبيل الله، والقتال في الشهر الحرام، وفي شأن الخمر والميسر، واليتامى وفي النكاح وفي المحيض والعدة ثم قال الله سبحانه بعد بيان تلك الأحكام:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢)

فجاء هذا النهي جازما حازما بدليل قوله تعالى:

﴿ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٣)

وسنجد مثل هذا واردا عقب أحكام تشريعية في (سورة النساء) و(سورة التوبة) و(سورة المجادلة) و(سورة الطلاق) وغيرها.

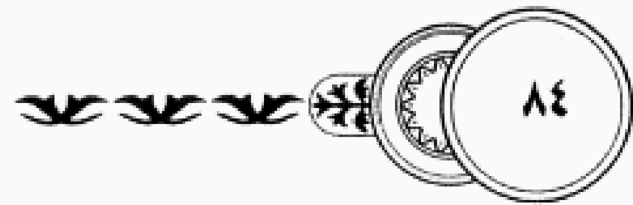
ويؤخذ من تلك النصوص القرآنية ومما جاء في السنة النبوية الشريفة أن حدود الله ينبغي حفظها بمستويين.

---

(١) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.



أحدهما:

يكون بعدم الاقتراب منها، وذلك بالحذر والورع وكمال الإيمان ومراقبة الله سبحانه بعداً عن مزالق الخطر. يدل على هذا قول الله عز وجل:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ (١)

فالنهي هنا نهي ترغيب بالأكمل، وإرشاد إلى الأفضل، وإلى الأخذ بالأحوط.

والمستوى الآخر:

يكون بعدم تجاوز هذه الحدود، علمًا بأن من دخل الحد تجاوزه حتما؛ لأنه لا يدخل فيه إلا إذا مس المنطقة الحرام.

وهذا مستوى التكليف الجازم الذي يعاقب من خالفه ويدل عليه قول الله عز وجل:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢)

وقول الله سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

وقول الله عز وجل:

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (٤)

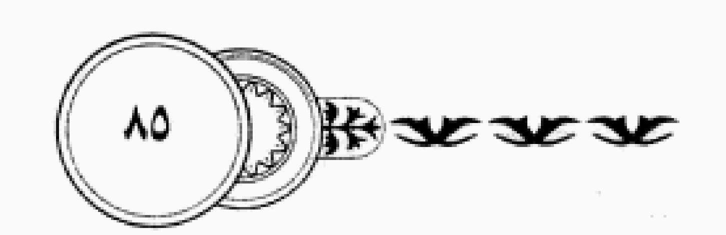
---

(١) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٤ من سورة النساء.

(٤) من الآية ١ من سورة الطلاق.



ومن ثم فالنهي عن تجاوز حدود الله وتعديها نهي تحريمي قطعًا بدليل ترتيب العقاب، ووصف المتعدي بأنه ظالم.

وبذلك يكون الحكم في الدين - دون دليل شرعي كاف - افتراءً على الله، وعلى دين الله.

ويصبح مِنْ تَعَدِي حدودِ الله تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، وإيجاب مالم يفرضه الله واستباحة وترك ما أوجب الله.

ولقد شدد الله في شأن أحكام الناس في التحريم والتحليل والإيجاب من غير دليل شرعي، ووصف الله ذلك بأنه افتراءٌ على الله؛ لأنه سبحانه له الأمر وله الحكم. فالتحريم الديني والإيجاب الديني والإباحة، وإنما يكون كل ذلك لله سبحانه باعتباره حكما تشريعيا من خصائص الألوهية، والطاعة في الأحكام التشريعية عبادة لله منزل الحكم، وفي هذا كانت حكاية (مقالة يوسف لصاحبيه) في السجن:

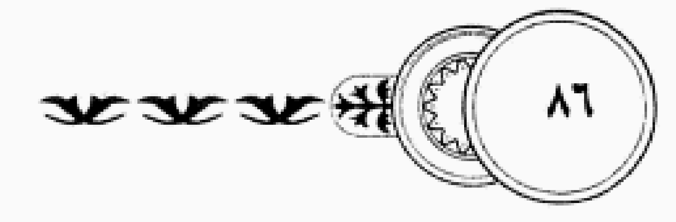
﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)

وفي قول الله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾(٢)

(١) من الآية ٤٠ سورة يوسف.

(٢) الآيتان ٥٩ و٦٠ سورة يونس.

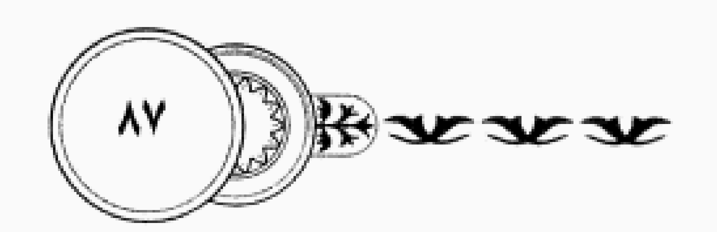


وفي قوله سبحانه:

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) الآيتان ١١٦ و١١٧ من سورة النحل.



التفريط في الأحكام الشرعية

ويقع التفريط في الأحكام التشريعية باستباحة ما حرم الله أو باستباحة ترك ما أوجب الله.

ومن التفريط حمل ما أمر الله به أمر إلزام ورتب العقاب على تركه على أنه أمر ندب، وحمل ما نهى الله عنه إلزاما، على أنه مكروه.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية: التلاعب بدلالات النصوص للتخفيف من درجة الحكم التشريعي المستفاد منها تبعًا للأهواء، أو إرضاءً لأصحابها: كتحليل بعض أنواع الربا، وإباحة بعض المسكرات، والإذن بجمع الصلوات على غير الصور التي رخص بها رسول الله ﷺ، وكالتهوين من أمر أنواع من الظلم والاحتكارات، والغبن الفاحش في التعامل.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية: تتبع الآراء الاجتهادية الضعيفة التي لا سند لها، والتي تخالف اجتهادات جمهور الفقهاء، وكذلك تتبع رخص المذاهب، أو أسهل الآراء منه لمجرد التخفيف من تبعات التكاليف.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾[1]

ويقاس على هذا كل ما حرم الله؛ فلا يجوز استحلاله؛ لأن استحلاله يكون من التفريط في الدين، وكذلك كل ما فرض الله وأوجبه لا يجوز استباحة تركه ومن استباح تركه يكون مفرطا في الدين.

---

(١) من الآية ٢ من سورة المائدة.

الغلو في الأحكام التشريعية

يقع الغلو في الأحكام التشريعية بالتحريم من غير دليل كاف للتحريم، وبالإيجاب والفرضية، دون دليل كاف لإسباغ هذا الحكم. وليس من الدين ولا من الورع جعل المكروه حراماً، ولا جعل السنة فرضًا أو واجبًا، بل إن وقع ذلك كان غلواً في الدين لم يأذن به الله.

وإنما الورع يكون بالالتزام بترك المكروه، وبالمواظبة على فعل السنة عملاً دون رفع حكمها عن مستواها التشريعي الذي أفادته أدلة الاستنباط للأحكام الشرعية.

هذا وقد أصبح ملحوظًا صدور بعض الفتاوى بتحريم أعمال أو إيجاب أعمال لم ينزل فيها دليل موجب للحكم بالتحريم أو بالوجوب.

إن من يفعل ذلك آثم؛ لأن في عمله هذا تجنيًا على دين الله وتعديًا لحدود أحكام الله، وقد ثبت في صحيح مسلم من كلام رسول الله ﷺ:

"يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"

ومن الغلو في الدين في الأحكام التشريعية: التعصب المذهبي أو التعصب للرأي مع وجود مذاهب أخرى معتبرة كهؤلاء المغالين في أحكام اللباس والزينة، وفي أحكام الطهارة الحسية، وفي أحكام اللحوم المحرمة، وفي أحكام ما يقص من الشعور وما يعفى، وكظاهر الاقتداء بالرسول ﷺ في طريقة أكله وشربه ولباسه ومعاشه ومشيه مع أن هؤلاء الغلاة كثيراً ما يتهاونون في أمور الكبائر المجمع على تحريمها، ولا يحذرون الناس منها كالقذف والحسد والغيبة والنميمة وشهادة الزور والكذب وإثارة الفتن واستخدام المراكز الوظيفية للمصالح الشخصية أو الحزبية. ولقد استنكر القرآن تحريم ما لم يحرمه الله من الزينة فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٣ ﴾ (1)

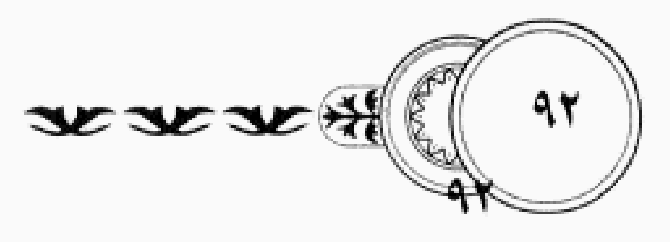
حيث نددت هذه الآيات بالذين يحرمون من زينة الحياة الدنيا ما لم يحرمه الله من ملابس ومآكل ومشارب ونحوها، ووجهت الآيات العناية إلى المحرمات الجوهرية التي حرمها الله: وهي الفواحش وما ظهر منها كالزنا، وما بطن كالحسد وإرادة المحرم والشر بالناس، والإثم كشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، ولعب الميسر، والبغي بغير الحق كالقتل عدواناً، وأكل أموال الناس بالباطل والغيبة والقذف وإيذاء الناس في أجسادهم وأعراضهم.

ولقد نبه القرآن إلى خطورة تدخل الناس في أمر التحريم والتحليل حيث أورد أخبار أمم سابقة افتروا على الله كذباً فحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، ووصفهم القرآن في سورة الأنعام بأنهم قد ضلوا وما كانوا مهتدين ومن قبلها في (سورة المائدة): حيث وصف الله ـ سبحانه ـ أولئك فيها بقوله:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٠٣ ﴾ (2)

(1) الآيات من ٣١ : ٣٣ من سورة الأعراف.

(2) من الآية ١٠٣ من سورة المائدة.



التفريط والغلو في السلوك الديني

الأجمل في السلوك الديني الرشيد: الاتباع لا الابتداع، وكمال هذا السلوك إنما يكون بالاتباع الأمثل لأحكام الله، ولسنة رسول الله ﷺ؛ القولية العملية والتقريرية الثابتة فما نقص عن درجة الكمال كان تقصيراً وزهدا في مرتبتي البر والإحسان، أو مرتبة الإحسان؛ وما نقص عن ذلك من دائرة التقوى كان تفريطاً وتهاوناً ومعصية لله سبحانه.

وما زاد على الاتباع الأمثل، وعلى كمال هذا السلوك فهو غلو وتجاوز لحدود كمال السنة.

والتفريط في السلوك الديني يظهر في ثلاث صور:

الأولى: النقص عن الالتزام بفعل الواجبات، وترك المحرمات؛ وهذا الانتقاص فيه إخلال بمرتبة التقوى.

ويبدأ التفريط بارتكاب الآثام، ويزداد حتى يبلغ درجة الفسوق.

الثانية: النقص من مراعاة فعل المندوبات وترك المكروهات؛ وهذا النقص يفوت على صاحبه بلوغ مرتبة البر.

الثالثة: النقص من مراعاة فعل الأولى والأفضل والأحسن، وترك خلاف الأولى والأفضل والأحسن.

هذا والغالب السائد أن المؤمنين - في الجملة - مقصرون في حقوق مرتبة التقوى وظالمون لأنفسهم يخلطون عملا صالحًا وآخر سيئًا، ومن ثم كان تحذير الله سبحانه قوله تعالى:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

(١) الآية ٢١ من سورة النور.

الغلو في السلوك الديني

بمعنى الزيادة على الاتباع الأمثل، فمن يترك كسب الرزق من الطرق المباحة ليتفرغ للعبادة المحضة، مع أنه وأسرته بحاجة إلى الاكتساب - فقد غالى في السلوك الديني - وزاد عن حدود العبادة المحضة زيادة طغت على ما يجب عليه من كسب الرزق، ولا يجوز ترك الواجب للغلو في أعمال عبادة هي من جنس العبادات المأذون بها شرعًا، ولكن صرف كل الجهد والوقت فيها غير مأذون به، نظرًا لأن هذا الجهد وهذا الوقت هما من حق اكتساب الرزق الواجب عليه.

والسلوك الديني المتوازن يقتضي توزيع الجهد على الأعمال المطلوبة بحسب مقتضيات هذه الأعمال. حيث جعل الله - سبحانه - للعبادة المحضة أوقاتًا أوجب فيها السعي لأداء العبادة الواجبة؛ فإذا أتمها كان عليه أن يسعى في الأرض ويبتغي من فضل الله.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾[١]

حيث أمر الله في هذه الآية بالسعي إلى شهود الصلاة من يوم الجمعة وذكر الله فيها، وترك الأعمال الدنيوية في ساعة الصلاة، فإذا قضيت الصلاة، فإن الله يأمرنا بأن ننتشر في الأرض، ونبتغي من فضل الله رزقنا، ومطالب الحياة.

---

(١) الآيتان ٩و ١٠ من سورة الجمعة.

وإذا كانت الزيادة التي جاءت غلواً على فرض أو واجب لا تفضي إلى ارتكاب محرم، وتكون من جنس ما أذن به الشارع كقيام الليل كله للذكر والعبادة، فإن هذا الغلو مخالف للسنة لا محالة، وليس هو الاتباع الأحسن لرسول الله ﷺ؛ ثم إذا قصر المغالي بسبب غلوه في أعمال أخرى من البر ذات النفع الأكبر له وللإسلام وللمسلمين، كان غلوه غير محمود حتماً.

يدل على ذلك الحديث الذي رواه أنس ـ رضي الله عنه قال:

"جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟".

قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر.

وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني". (١)

وقد يكون هذا استجابة لهوى من أهواء النفس في نوع العمل الذي غلا فيه دون ابتغاء اتباع الأفضل لمنهج كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسول الله ﷺ أو يرجع إلى تصور خاطىء للأفضل عند الله: كهؤلاء الذين يتصورون أن زيادة الأجر إنما تكون على زيادة المشقة وتعذيب النفس في عبادة الله ـ تعالى ـ مع عدم الحاجة إلى ذلك، كمن يحج ماشيا وهو مستطيع أن يحج راكباً، وكمن يصلي في الشمس تعذيباً لنفسه، وعنده ظل يستطيع أن يصلي فيه.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

وفي ذلك القصة التي رواها البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

"بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم."

فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه.

وكمن يكلف نفسه الصيام في السفر الشاق في صيف شديد الحر، وقد أذن الله له بأن يفطر، ورخص في ذلك.

ومن أمثلة الغلو في السلوك الديني في عصرنا هذا:

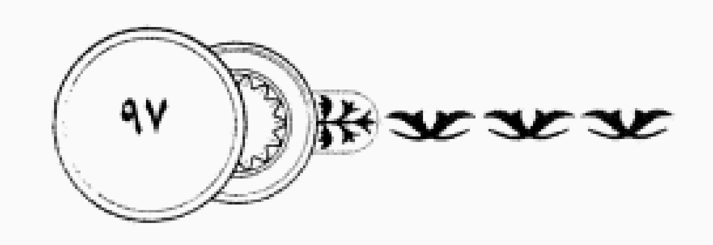
السفر للحج كل عام، والغلو بأداء العمرة مرات ومرات وبذل الأموال في هذا السبيل، مع أن مجالات إسلامية كثيرة بحاجة ماسة إلى هذه الأموال لنشر دين الله، وتعليم الجاهلين به.

كما أن مؤسسات خيرية تحتاج إلى هذه الأموال وإقامتها أنفع للمسلمين، وأحب عند الله وأفضل.

ومن الغلو في السلوك حرص بعض الناس على تقبيل الحجر الأسود مع ارتكاب معصية الله بمدافعة المسلمين والمسلمات، وإيذائهم والتعرض لانتهاك حرمة من حرمات الله عند بيت الله.

ومثله: الحرص على الصلاة عند مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع ارتكاب معصية إيذاء الطائفين والطائفات بالتضييق عليهم في مطافهم.

ومن الغلو في السلوك الديني: إطالة الصلاة في ركوعها وسجودها إلى حد السأم ونفور النفوس؛ لاسيما إذا كان المغالي في هذا إماماً للناس، وممن يُقتدى بهم.



منهج التدين في الإسلام

يرشدنا إلى هذا المنهج ومنطقه قول الله سبحانه ـ في (سورة العنكبوت):

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (١)

وقول الرسول ﷺ:

"ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا." (٢)

ومن ثم كان من المحتم أن يتضح مفهوم الدين مقرونًا بإيضاح السلوك المستقيم في الفكر والعمل والخلق كمكونات له، مع استبعاد كل الوسائل الهابطة وما لا يناسب الدين من كل منهج وافد، واستبعاد الانحرافات والخرافات المتراكمة من سوء فهم حقيقة الدين مما يؤثر على فكر الشباب وخواطرهم.

ويجب استمداد المعلومات الدينية من حقائقها الأصيلة التي تطبع الحياة بطابعها الإنساني المتكامل دون تناقض مع الحقائق العلمية وتقدم الإنسانية؛ لأن الدين والعلم متكاملان غير متناقضين، وآيات القرآن الكريم التي تزكي العلم والعمل كثيرة وفيرة.

ثم إن الشباب يجب أن يعرف معنى الإيمان ومعنى الإسلام وأسس الإسلام، وكبائر الذنوب وصغائرها، وأن مرتكب الكبيرة ليس بكافر، وأن تكفير المسلم من الكبائر، وأن الجهل والخطأ والإكراه عفو بشروط لكل منها، وأن يعرف المنهج القويم للدعوة إلى الله ومراتب الدعوة، ومن يقوم كل مرتبة منها، وضوابط تأويل آيات القرآن الكريم، والاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها الأساسية، وغير هذا من الأمور العامة والمهمة التي تدور على الألسنة، والتي يقع من

---

(١) من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤١٥ .

يواجهها في حرج خطير إذا لم يكن قد تأهل لها بالعلوم والمعارف المؤهلة لارتيادها.

وإذا تفهم الشباب حقيقة الدين، وترابط العقيدة والأخلاق والسلوك مع العمل، ونشؤوا على سلوك قويم محبين للفضائل عزوفين عن الرذائل، استقام أمرهم، واعتزوا بدينهم وبوطنهم وباعدوا بين أنفسهم وبين الانحراف كل الانحراف.

وفي شأن المسؤولية نحو الشباب، فإن الإسلام قد حمل كل فرد المسؤولية الناجمة عن عمله ومعتقده وهذا واضح في آيات القرآن الكريم.

فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]

وفي موضع آخر يقول عز وجل:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾[2]

ولقد حذر الرسول ﷺ ابنته فاطمة، وعمته صفية بنت عبد المطلب بقوله الشريف:

"يا فاطمة بنت محمد اعملي فلن أغني عنك من الله شيئا، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبدالمطلب لن أغني عنكم من الله شيئا."[3]

(١) الآية ٣٩ من سورة النجم.

(٢) الآية ٧ من سورة الإسراء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه وأحمد والنسائي.



وهذه المسؤولية الفردية متنوعة تشمل كل علاقات الفرد مع نفسه ومع غيره ومع ربه؛ ومن هنا كانت مسؤولية الشباب عن نفسه على هدي ما تعلمه.

ومن مسؤولية الشباب نحو نفسه: أن يحذر أولئك المفسدين الذين ينشرون الأفعال السيئة، وينطقون بالأقوال الموجهة إلى الفساد والمحرضة عليه.

فهم يغرون الشباب باتباع وإشباع أهواء النفس ونزواتها ورغباتها نزولاً على ما يسمونه مبدأ الحرية المطلقة التي تتسم بسمة الفوضى والوجودية.

كما يغرونهم بالتمرد على نصائح وتوجيه الآباء والمربين، بدعوى أنهم رجعيون صدأت أفكارهم، فلم تعد تساير الأجيال الجديدة، ثم إغراء الشباب بالتقليد لكل وافد من العادات والأعراف، ولو كان قد هجره أهله. ومع كل هذه الأهواء، كان سوء فهم الدين.



معنى الدين

كلمة (الدين) في لغة العرب من الألفاظ المشتركة بين عدة معان.. فيقال:

دان الرجل: إذا أطاع، ودان: إذا عصى. ودان: إذا عز. ودان: إذا ذل؛ فهو من الأضداد.

ويطلق لفظ (الدين) أيضاً على العادة والشأن.

والدين في الاصطلاح الإسلامي: وضع إلهي شرع لإسعاد الناس في حياتهم في الدنيا والآخرة.

وهو المراد بالهدي الذي نبه الله إليه سيدنا آدم - عليه السلام - عندما أهبطه إلى الأرض في قوله تعالى :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1]

وهذا الهدي الإلهي الذي جعله الله هدياً لآدم وذريته، جاءت به الرسل متتابعين، وحيا من الله - سبحانه - حتى انتهى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ. وإذا كان الدين وحيا من الله سبحانه، كان فيه كل سعادة للناس في الدنيا والآخرة، وكان هو وسيلة الإنقاذ.

---

(١) الآيتان ١٢٣ و١٢٤ من سورة طه.

موضوعات متفرقة

العدل في القرآن

العدل ضد الظلم ومادة (عدل) من الألفاظ المشتركة، وفي هذا المقام يقال: عدل في الأمر عدلاً وعدالة: استقام، وعدل في حكمه: حكم بالعدل.

وهذا المعنى هو موضوع هذا الحديث، ولقد شاءت إرادة الله. وعدله أن تكون شريعة الإسلام بما جاءت به من نظم ومبادىء هي شريعة الله لكل الناس إذ هي شريعة كاملة استوعبت بأحكامها ومرونتها جميع ما حدث ويحدث للناس من أقضية ووقائع وما يجد من مصالح.

ولقد حث الله في القرآن الكريم على العدل بين الناس، وجاء بمبادىء مهمة تستقر عليها العدالة. ففي قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1]

وفي قوله سبحانه:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾[2]

---

(١) الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

وفي ذات السورة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾(١)

هذه المبادىء للعدل وللعدالة وجهت إليها هذه الآيات حيث أمرت بأداء الشهادة على وجهها الحق حفاظًا على إظهار حقوق الناس، ومنعًا من إهدارها، وأنه لا ينبغي أن يكون بغض قوم مدعاة للميل عن طريق العدل معهم، بل يجب التزام جانب العدل لأنه أقرب سبيل إلى خشية الله، وأن العداوة لا تخل بالعدالة التي هي نظام هذا الوجود، كما أن العدل لا يكون عطفًا على فقير أو استجابة لرغبة غني، وإنما العدل لذاته حتى تستقيم أمور الحياة وتستقر الحقوق.

ونجد لونًا آخر من العدل في القول. كقول الله سبحانه:

﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ ﴾(٢)

فلا ميل عن العدل بسبب قرابة، أو معاهدة، أو أية عواطف ومصالح مما يتبادله الناس، ولقد نبه القرآن إلى أن موازين العدل ستقام يوم القيامة، ليحاسب كل إنسان عن كل كبيرة وصغيرة اقترفها في الدنيا وعندئذ لا ظلم ولا محاباة، ذلك قول الله سبحانه:

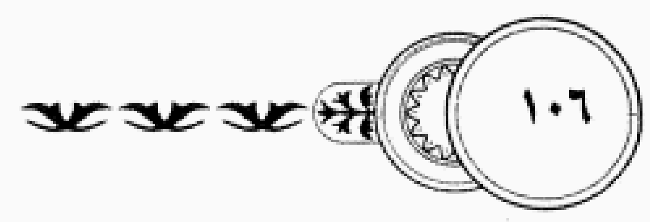
﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧ ﴾(٣)

---

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء.



ولأهمية العدل بين الناس لاستقامة حياتهم، جاء القرآن مخاطبا الرسول ﷺ بإقامته، مخصصا بعض القضايا الهامة بالذكر. ذلك قول الله تعالى :

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (١)

وقال:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ (٢)

وفي قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٣)

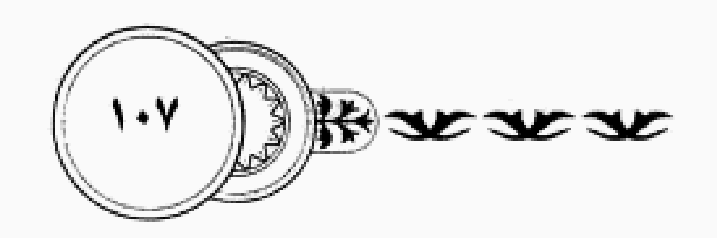
فهذه الآيات جاءت صريحة في الدلالة على وجوب الحكم بما أنزل الله سبحانه، لاشتماله على كل ما هو حق. وآيات أخرى جاءت محذرة من مثل حال الشعوب التي حادت عن العدل، فكان مصيرها الهلاك والانقراض.

وفي حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الشيخان في خطبة له:"أيها الناس، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها."

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ٤٩ من سورة المائدة.

(٣) الآية ١٠٥ من سورة النساء.



ولقد أرسى الرسول ﷺ قواعد إقامة العدل بين الناس، وبعث القضاة بعد أن استوثق من صلاحيتهم لهذه المهمة، فقد أرسل علي بن أبي طالب قاضياً على اليمن، ثم أرسل معاذ بن جبل، وسأله "كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟ فقال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله . قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله. قال: أجتهد رأيي ولا آلوا[1]. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بهذا الجواب.

ولقد عين الرسول ﷺ قضاة في المدينة في حياته حتى يمارس الناس العدل، وإقامته تحت رقابته ومراجعته.

وجاء في أحاديثه ﷺ من القواعد الموضوعية والإجرائية ما يوصل العدالة ويوصل إليها، فقد أرشد الناس إلى أن للشريعة الإسلامية أصلين يرجع إليهما فقال:

"لقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله، وسنتي."[2]

ويقرر ﷺ أنه حين يقضي بين الناس إنما يقضي بوصفه بشراً، يستمع إلى طرفي الخصومة، وإلى أسانيدهم، وإلى مرافعاتهم، ثم يقضي وفقًا لما ينتجه الدليل السليم المقبول لأيهما المدعي أو المدعى عليه.

فيقول ﷺ:

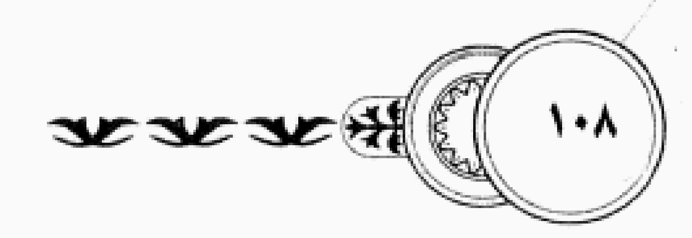
"إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار."[3]

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه المنذري في الترغيب والترهيب عن الحاكم.

(٣) فتح الباري جـ٥ صـ ٢٨٩.

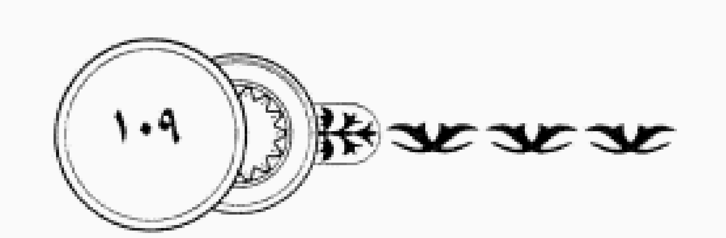


وبهذا يتضح حكم الإسلام في أن قضاء القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالا، وأن على المتقاضين مراقبة الله عند أخذ الحقوق ـ بناء على حكم القضاء ـ لأنهما قطعًا يعلمان أن الحق في الخصومة، وهذا لا ينفي أن الحكم القضائي عنوان ظاهر للحقيقة.

ولقد جرى الخلفاء الراشدون على اقتفاء سنة الرسول ﷺ في القضاء، وإقامة العدل، فكانوا يبحثون عن أحكامه فيما عرض عليه من قضاء، كما كان كل واحد منهم يسأل عن سوابق قضاء من سبقه من الخلفاء طلبًا لاستقرار المبادىء القضائية التي يحتذيها القضاة، ـ لا سيما ـ تلك المبادىء التي تفسر نصًا موضوعيًا أو إجرائيًا تفسيرًا تستقر عليه مصالح الناس، ويوفر جريان العدالة إلى كل الناس وفي كافة الحقوق.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾[1]

(١) من الآية ٥٠ من سورة المائدة.



«القرآن»
والعمل بالسنة النبوية

لفظ السنة معناه في اللغة: الطريقة، ومنه قول الله سبحانه:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

وجاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه:

"من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة."

والسنة في الإصطلاح الشرعي: ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

والسنة القولية: هى أحاديثه ﷺ التي نطق بها مثل قوله الذي رواه مالك وغيره:

"لا ضرر ولا ضرار."

والحديث المتفق عليه: "إنما الأعمال بالنيات.."

والسنة الفعلية: هى أفعال ﷺ مثل: أدائه الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها، وأدائه مناسك الحج، وسلوكه في القضاء وتقرير أصول المحاكمات.

والسنة التقريرية: هي ما أقره الرسول ﷺ مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال وأفعال، وذلك بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته الصريحة وإظهار استحسانه، فيعتبر هذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول ﷺ نفسه.

---

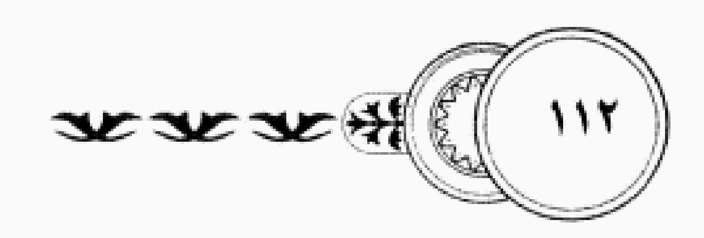
(١) الآية ٢٣ من سورة الفتح.

ومثل ما روي من أن صحابيين خرجا في سفر، وحضرتهما الصلاة، ولم يجدا ماء فتيمما، وصليا، ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما صلاته ولم يعد الآخر، فلما قصا على الرسول ﷺ أقر كلاً منهما على ما كان منه، وقال للذي لم يعد الصلاة: أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي أعاد الصلاة: لك الأجر مرتين.

حجية السنة:

أجمع المسلمون على أن ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير - مقصود به التشريع والقدوة، وثبت نقله بسند صحيح مفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه - يكون حجة على المسلمين، ومصدرا تشريعيا يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين.

وهذا يعني أن الأحكام الواردة في هذه السنة تصبح من الأحكام الواردة في القرآن الكريم قانوناً.



دلائل حجية السنة النبوية
من القرآن الكريم

جاء في القرآن آيات آمرة بطاعة رسول الله ﷺ، وجعل طاعته طاعة لله سبحانه.

وأمر القرآن المسلمين - إذا تنازعوا في شيء - أن يردوه إلى الله وإلى الرسول، ولم يجعل للمسلمين خياراً إذا قضى الله ورسوله أمراً، ورفع القرآن وصف الإيمان عمن لم يستجب إلى قضاء الرسول ﷺ، ولم يذعن له، وذلك كله وغيره برهان من الله سبحانه على أن ما شرعه رسول الله ﷺ هو تشريع إلهي وجب اتباعه والإذعان له.

ومن هذه الآيات:

قول الله سبحانه:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾[2]

وفي ذات السورة قول الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾[3]

---

(١) الآية ٣٢ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٨٠ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

وفي قوله:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾(١)

ثم إن في القرآن فرائض مجملة لم تفصل أحكامها ولا كيفية أدائها: كالصلاة والزكاة والصوم، حيث جاءت نصوص القرآن في شأنها إجمالاً دون بيان صريح لعدد الصلوات ولا بكيفية أدائها ولا مواقيتها، وكذلك الصوم والحج بينت نصوص القرآن بعض الأحكام دون البعض، وفي الزكاة لم يبين القرآن الأموال التي تجب فيها الزكاة، ومقدار النصاب في كل نوع منها.

ولقد بين الرسول ﷺ هذا الإجمال بسنته قولاً وعملا بإذن من الله سبحانه في قوله تعالى:

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٢)

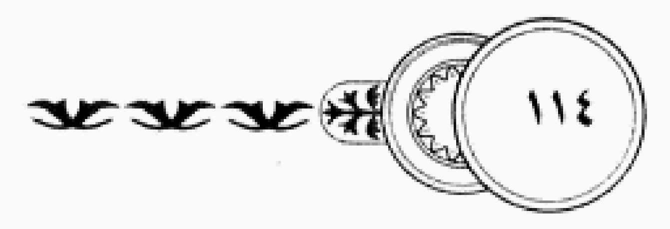
فإذا لم تكن هذه السنة البيانية حجة على المسلمين، وشرعًا واجب الاتباع لتعذر تنفيذ ما فرضه الله في القرآن، ولتعذر كذلك اتباع أحكامه.

هذا وتعتبر السنة - من جهة الاحتجاج بها - واستنباط الأحكام الشرعية منها المصدر الثاني أي التالي للقرآن الكريم، بحيث إن المجتهد لا يرجع إلى السنة للبحث عن حكم واقعة إلا إذا لم يجد الحكم في القرآن.

يدل على هذا المنهج حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - حين بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قاضيًا حيث سأله: "كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟. فقال:

(١) من الآية ٧ من سورة الحشر.

(٢) الآية ٤٤ سورة النحل.



بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟. قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟. قال: أجتهد رأيي ولا آلو." (١)

وقد أقر الرسول ﷺ قول معاذ هذا وسُرَّ به. وما جاء في السنة من أحكام تشريعية ثلاثة أنواع:

أ- أن تكون سنة مقررة ومؤكدة حكمًا جاء به القرآن، فيكون للحكم مصدران: القرآن والسنة.

ومن هذا القبيل، الأمر بإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهي عن الشرك بالله وغير هذا من المأمورات، والمنهيات التي دلت عليها آيات القرآن وأيدتها السنة.

ب- وقد تكون السنة مفسرة ومفصلة لما جاء مجملاً في القرآن أو مقيدة لما جاء مطلقًا أو مخصصة لما جاء عامًا، وذلك كالسنة التي بينت مواقيت الصلاة وأركانها وهيئاتها، وأنصبة الزكوات، وأنواع الأموال، ومناسك الحج.

جـ- وتأتي السنة منشئة، أو مثبتة لحكم سكت عنه القرآن.

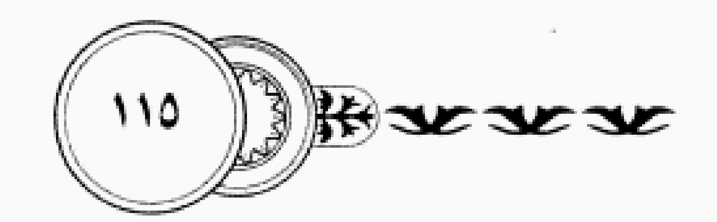
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٢)

فيكون هذا الحكم ثابتا بالسنة فقط كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها على عصمة رجل واحد، وتحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجل المسلم، وما ورد في حديث الرسول ﷺ:

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) من الآية ٦٤ من سورة مريم.



"يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب." (١)

وهذه الأنواع من السنة التشريعية هي التي أشار إليها الإمام الشافعي في رسالته - في الأصول - بقوله:

«لم أعلم من أهل العلم مخالفًا في أن سنة رسول الله ﷺ من ثلاثة وجوه:

أحدها: ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب فسنة رسول الله مثل نص الكتاب.

والثاني: ما أنزل الله عز وجل فيه نص مجمل فَسَنَّ عن الله معنى ما أراد.

والوجه الثالث: ما سن رسول الله ﷺ سنة مما ليس فيه نص كتاب».

فهل بعد هذا يقال من بعض الناس بالرجوع إلى القرآن وحده؟!!

ألا إن الله تعالى قال :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

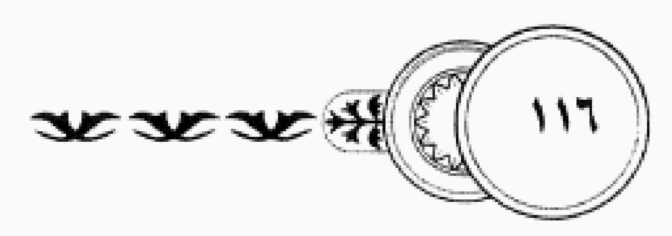
وقال:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (٣)

(١) رواه البخاري وأحمد.

(٢) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ١١٥ من سورة النساء.



القرآن والإنسان

لقد استخلف الله الإنسان في الأرض كما أنبأنا بذلك القرآن الكريم في قوله سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(1)

وهذا الإنسان جاء بصنع الله سبحانه حاوياً لأنواع من الغرائز والطباع والميول التي تتنازعه، ولقد تحدث القرآن عن هذا في آيات عديدة حتى ينبه الإنسان إلى محتواه، فينمي غرائز الخير والصلاح، ويحد من غرائز الشر والفساد فهذه غريزة: الادخار وحب الاقتناء مع طبيعة الشح والحرص على ما ملك يقول القرآن في شأنها:

﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ ﴾(2)

ويقول:

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾(3)

ويقول:

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾(4)

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٢٨ من سورة النساء.

(٣) من الآية ١٠٠ من سورة الإسراء.

(٤) الآية ٨ من سورة العاديات.

ويقول:

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (1)

وآيات أخرى تشير إلى غرائز كامنة متنوعة، متناقضة نحو: غريزة الخوف، وحب الادخار، والشح، واستعجال الخيرات والملذات، وانفلات الغرائز، وعجز العقل الإنساني عن كبحها. منها قول الله سبحانه:

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (2)

وقوله:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (3)

وقوله تعالى:

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ (4)

وقوله:

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (5)

وفي قوله:

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ (6)

أما جموح الغرائز، واستعلان الشهوات، وتنازع حب البقاء والاستطلاع، واتباع الهوى فتصوره هذه الآيات:

(1) الآية ٢٠ من سورة الفجر.
(2) من الآية ٢٨ من سورة النساء.
(3) الآيات ١٩:٢١ من سورة المعارج.
(4) من الآية ١١ من سورة الإسراء.
(5) من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء.
(6) الآية ٢٠ من سورة القيامة.

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾(1)

وقوله:

﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴿٣٦﴾ ﴾(2)

وقوله:

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾(3)

أما غرائز: حب الظهور والاستعلاء والتفاخر فتشير إليها هذه الآيات:

في قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾(4)

وفي قوله:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾(5)

وفي قوله:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾(6)

وسنجد عند تلاوة القرآن آيات تشير إلى ما ينشأ عن غريزة الأبوة والأمومة من محبة الأولاد والرغبة في حمايتهم والخوف عليهم..

(1) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

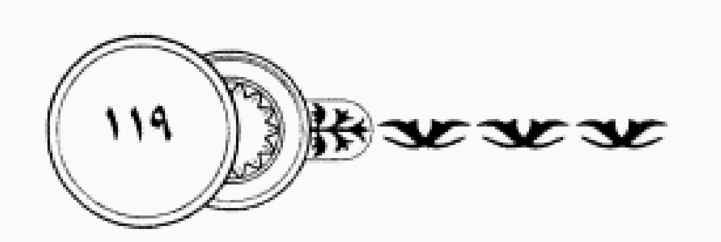
(2) من الآية ٣٦ من سورة البقرة.

(3) من الآية ٥٤ من سورة الكهف.

(4) من الآية ١٨ من سورة لقمان.

(5) الآيتان ٦ و٧ من سورة العلق.

(6) من الآية ١٨٨ من سورة آل عمران.



مثل قول الله سبحانه:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ ﴾ (١)

أما عاطفة الإيمان بالله وكونها مستقرة في قلب الإنسان أيا كان دينه، وأنها تتجلى عند تعرضه للخوف.

فيتحدث عنها القرآن في مثل قول الله سبحانه:

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ (٢)

وفي قوله:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (٣)

وفي قوله:

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (٤)

أما إن الإنسان اجتماعي بغريزته فيعبر عنها قول الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (٥)

---

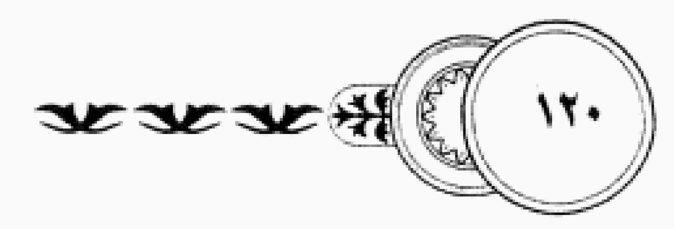
(١) الآية ٩ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٨ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٣٣ من سورة الروم.

(٤) من الآية ٣٢ من سورة لقمان.

(٥) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.



القرآن والمرأة

عني القرآن الكريم بشؤون المرأة في الكثير من سُوَرِهِ حتى عرفت إحدى السور بـ (سورة النساء الكبرى) وعرفت أخرى بـ (سورة النساء الصغرى) وهما سورتا النساء: (الرابعة في ترتيب المصحف) وسورة الطلاق (رقم ٦٥ في ترتيب المصحف).

وهذا يدل على مكانة المرأة في نظر الإسلام، وأنها مكانة لم تبرز ولم تحظ بمثلها المرأة في شريعة أخرى، بل ولا في مجتمع إنساني، على مر العصور والتطور الإنساني في هذه الحياة حتى الآن.

ولقد أثيرت في هذه الأيام عدة قضايا حول المرأة:

بعضها جاء تقليداً لمجتمعات بعيدة عن المنهج الإسلامي الذي يستقى من نصوص القرآن والسنة.

وبعضها جاء وليداً لعادات وأعراف توارثها الناس دون أن يستظهروا: ما إذا كان هذا الذي توارثوه إسلامياً - صحيح بالنسبة إلى الإسلام أم لا؟

وبعضها جاء نتيجة سوء الفهم لنصوص القرآن أو التزمت في الفهم:

ونستعرض بعض هذه القضايا مستلهمين حكم الإسلام فيها مما جاء به القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ.

المساواة بين الرجل والمرأة:

١- هذا هو القرآن الكريم يحدثنا عن خلق الرجل والمرأة فيقول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾[1]

---

(١) الآية ١ من سورة النساء.

وفي قول الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾(1)

والمستفاد من هاتين الآيتين ـ وغيرهما ـ أن القرآن لم يفاضل بين الرجل والمرأة في الجانب الإنساني، وإنما التفاضل يكون بما يكتسبه الإنسان من الصفات والأخلاق التي تسمو بالإنسان إلى أفضل المستويات.

وفي القرآن: ما يقرر أن الرجل والمرأة شطرا نفس واحدة لا يختلفان في الإنسانية كما لا يعد أحدهما فرعاً للآخر، وإنما هما شطران لنفس واحدة، فهما متكاملان. ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(2)

وفي القرآن ما يقرر: أن الرجل والمرأة يشتركان في (الوالدية) فقد سمى القرآن الرجل: والداً، وامرأته: والدة، وجاءت نصوص الآيات بوضعهما معًا موضع التكريم والاحترام بوصف الوالدية، فكانت الوصايا العديدة التي تحث على الإحسان إليهما وعلى البر بهما تذكيراً بالأصل الإنساني..

كما في قول الله تعالى:

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾(3)

---

(1) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(2) الآية ٢١ من سورة الروم.

(3) من الآية ٣٦ من سورة النساء.



وقول الله سبحانه:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (١)

بل إن القرآن بعد أن سوى بين الوالدين في الوصية بالإحسان إليهما واحترامهما - أرشد إلى ما للوالدة من جهود فائقة في تربية أولادها، لا يحمل الوالد منها شيئًا ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ (٢)

وحين سأل رجل رسول الله ﷺ: "من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟. قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك."(٣)

وتخصيص الأم بهذا القدر من العناية جاء تنظيما لما يقضي به فطرة الخلق في التكوين، وجزاء عاطفة الشفقة الفائقة التي أودعها الله في قلب المرأة لولدها، وبها احتملت مشاق الحمل والولادة والإرضاع وجهود التربية الأولى، والسهر على حفظ المولود في صحته وسلامته بما يؤهله إلى اجتياز مراحل الحياة. وذلك شأن تشريع الإسلام، فكما نظّم صلة الولد بالوالدين، وأبان فضل الأم تقديراً لما تقوم به نحو الولد، وتقدير دور الوالد باعتباره المكافح الكادح المنفق - وكما فعل ذلك في محيط الوالدين - نظم تحصيل المال من طرقه المشروعة وإنفاقه في الوجوه المعقولة، دون تقيد أو تبذير ،ونظم علاقات الناس بعضهم مع بعض على أساس من المحبة والتعاون دون استغلال لحاجة محتاج. كل ذلك جاء تنظيمًا لمقتضى الفطرة السليمة.

(١) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ١٤ من سورة لقمان.

(٣) رواه البخاري ومسلم.



فهل مع هذه المساواة التي قررها الإسلام في القرآن بين الرجل والمرأة في (الوالدية) والنص على كمال (إنسانية المرأة) وإنها والرجل قد خلُقا من نفس واحدة، هل مع هذا يكون الإسلام قد ماز الرجل كإنسان عن المرأة كإنسان.

اللهم: لا.

بل الله يمن على المرأة بإنصاف القرآن لها ويرفع شأنها.

المساواة في المسؤولية:

قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١)

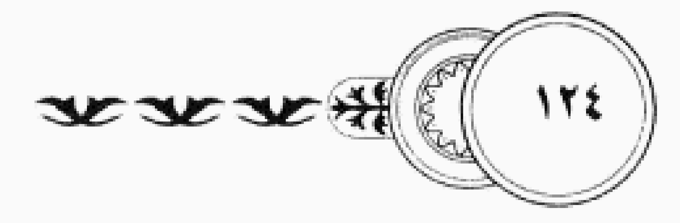
وقال سبحانه:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ (٢)

فيما تلونا من هاتين الآيتين وغيرهما تقرير القرآن أن المرأة ذات مسؤولية مستقلة عن مسؤولية الرجل فهي مسؤولة عن نفسها وعن عبادتها وعن معاملاتها وعن أسرتها وعن أمتها ولا تقل في مطلق المسؤولية عن الرجل. وأن الثواب والعقاب عند الله لكل من الرجل والمرأة منوط بما يكون من كل منهما من طاعة أو مخالفة، وطاعة الرجل لا تنفع المرأة إذا كانت غير صالحة ومنحرفة. كما أن

(١) الآية ١٢٤ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٩٥ من سورة آل عمران.



معصيته لا تضرها وهي مستقيمة صالحة. ثم إن في عبارة الآية الأخيرة (بعضكم من بعض) دلالة واضحة على المساواة إذ جعل القرآن المرأة بعضاً من الرجل وجعل الرجل بعضا من المرأة، وبذلك تتجلى المساواة في المسؤولية والتكليف بين الرجل والمرأة في حياتهما المشتركة دون تفاضل أو سلطان كما يؤكده قول الله تعالى :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ ﴾(١)

وقول الله سبحانه:

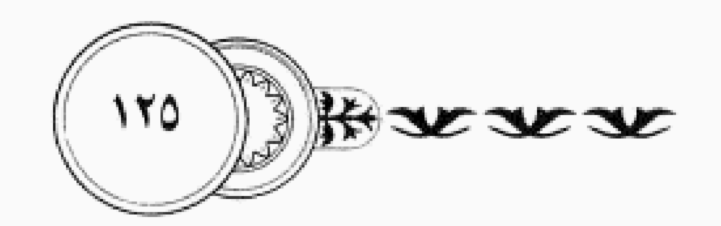
﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾(٢)

إذ قررت هذه الآية أن كل نفس: رجل أو امرأة مسؤولة عما كسبت. فلا يتحمل أحدهما خطأ الآخر أو خطيئة.

ويظهر هذا واضحاً في حديث القرآن عن امرأتي النبيين: نوح ولوط وعن امرأة فرعون.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾(٣)

(١) من الآية ٣٢ من سورة النساء.
(٢) الآية ٣٨ من سورة المدثر.
(٣) الآيتان ١٠ و١١ من سورة التحريم.



إذ لم تشفع نبوة نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ لامرأتيهما بل كانتا في النار جزاء خروجهما على الدين وكفرهما. كما لم يضر كفر فرعون امرأته التي قدمت عملاً صالحاً فأدخلت الجنة بعملها دون أن تُساءل عن أعمال زوجها.

المسؤولية العامة للمرأة:

وإذا كان القرآن قد قرر مسؤولية المرأة الخاصة عن نفسها وعباداتها ومعاملاتها، فقد قرر أيضاً مسؤولية الدعوة إلى الخير بالأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل وبالنهي عن المنكر والتحذير من الرذائل. وجعل انحراف كل منهما عن واجب الإيمان والإخلاص لله وللأمة المسلمة موضع المساءلة باعتبار أن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر المسؤوليات.

ذلك ما صرح به القرآن في قول الله سبحانه:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[1]

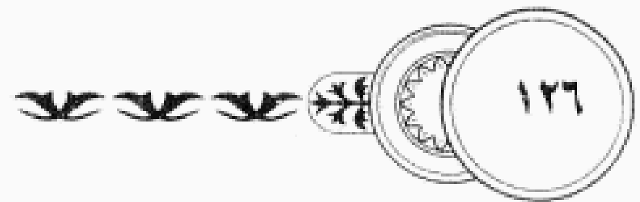
وفي قوله تعالى:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[2]

---

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة.

(٢) الآيتان ٦٧ و٦٨ من سورة التوبة.



فليس من الإسلام أن تُقعَد المرأة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن
فليس من الإسلام أن تقعد المرأة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن
تُلقي قسطها من هذه المسؤولية على الرجل؛ بل عليها بحكم الله في القرآن أن تحمل المسؤولية تضامنًا مع الرجل لتنهض الأمة ويستقيم حالها، لأن الرجل والمرأة مسؤولان تضامنًا عن استقامة حياة الأمة، وإلا اضطربت الحياة إن تخاذل أحدهما عن حمل قسطه منها.

هذه مثل من القرآن دالة على أن الإسلام قد كرم المرأة فهي في أصول العقيدة تحمل أمانة إنسانيتها كاملةً، وتكاليف رشدها أصالةً، فحقوقها مصونة وواجباتها مُلقاة على عاتقها..

وأساس الزواج في الإسلام التآلف والتكامل بين الزوجين كما ورد في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (١)

ومن ثم، فلا يجوز في الإسلام أن تكون الحياة الزوجية مجال صراع بين الزوجين على السيطرة والسلطة أو التنازع على النفوذ والرياسة، فقد شرع الله لكل من الزوجين دائرة عمله وتكاليفهما مع الأخذ في الاعتبار أن طبيعة الجماعة تقتضي أن يتولى فرد منها رعاية شؤونها ويتحدث باسمها.

والأسرة أحوج ما تكون إلى من يقوم على مصالحها. وقد جعل القرآن هذه القوامة للرجل تكليفًا لا تشريفًا، مع احتفاظ المرأة بكل مقومات شخصيتها، فلا تتخلى عن الانتماء إلى أسرتها التي أنجبتها، بل تظل تحمل اسم أبيها، ولها ذمتها المالية ما دامت عاقلة رشيدة تباشر عقود التصرفات المدنية دون أن يحد الزواج من هذه الأهلية، بل وليس لزوجها ولا لأبيها على أموالها أي حقوق حيث أتاح لها الإسلام أن تملك، وأن تتصرف فيما تملك وأباح لها توكيل غيرها فيما لا تريد مباشرته بنفسها وأن تضمن غيرها وأن يضمنها غيرها، كل ذلك مساواة بالرجل سواء بسواء.

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الروم.

تلك هي المساواة التي كفلها الإسلام للمرأة باعتبارها إنسانًا كامل الإنسانية، في حين أن المرأة الغربية ـ وبالجملة غير المسلمة وفي هذا العصر الذي يتنادون فيه بحقوق الإنسان عامة وحقوق المرأة خاصة ـ لم تصل إلى هذه الحقوق التي قررها الإسلام. ففي الغرب: بالزواج تنمحي ذاتية المرأة وتنسلخ من أسرتها وتنسب إلى زوجها ولا تملك التصرف في أموالها.

أن القرآن حين قال:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (١)

جعل مناط القوامة الرجولة. فلا تصح شرعا لقاصر أو لعاجز أو لسفيه. ويتفاوت ميزان الرجولة بتفاوت المسؤوليات. وفي مقابل هذه القوامة ومؤداها تحميل الرجل أعباء هذه الأسرة القوامة عليها، ولا تنقص هذه الدرجة من قدر المرأة ولا تحط من مكانها أو مكانتها: زوجا أو أما مسؤولة عن بيت الزوجية ومشاركة في حمل أعبائه. كما لا تعطل الأصل العام المقرر للمساواة في الحقوق والواجبات حسبما يقضي به العرف وعلى طريق المماثلة.

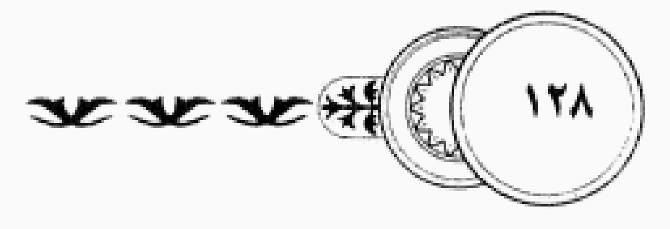
ذلك قول الله – تعالى–:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢)

وهذه الدرجة للرجل ليست حطًا من شأن المرأة، – أو – نقصًا من المساواة، وإنما جريا على ما قرره القرآن في شأن الرسل عليهم السلام كما في قول الله تعالى:

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة.



﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ (١)

وقول الله في شأن المؤمنين وأولي العلم:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (٢)

وفي قوله تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ (٣)

فليس إذاً بدعًا من القول والحكم إن أسند الله القوَامةَ للرجل وأناط به أعباء الأسرة ورفعه بهذا درجة، لأنها في مقابل مسؤوليةٍ أوفى وأكبر كما رفع بعض الرسل على بعض، وكما رفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات.

فالقِوَامةَ تنظيم للمسؤولية بين الرجل والمرأة وتوزيع لأعباء الحياة الزوجية وليست انتقاصًا من الحقوق التي قررها الإسلام وأقرها للمرأة في نطاق المساواة في الحقوق والواجبات..

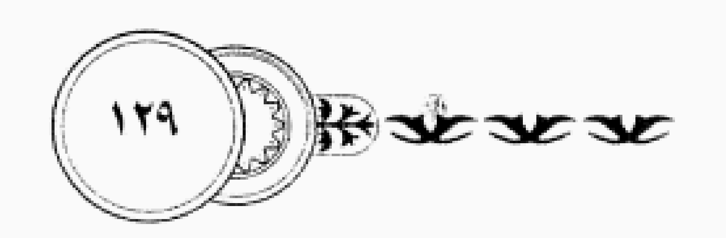
كما أن ما يقال عن قضايا المرأة ومشاكل الزوجية ليس ناشئًا عن قواعد التشريع الإسلامي الذي أقام الحياة الزوجية على التآلف النفسي والسكن والمودة والرحمة، وإنما هذه المشاكل أساسها أن ما يحدث حالات فردية، وتعتبر حالات مرضية شرع لها الإسلام وسائل الإصلاح وطرق العلاج حتى إذا لم تفلح وسائل الإصلاح المشروعة حسمت هذه العلاقة غير المستقرة بالطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله كما قال الله تعالى:

---

(١) من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١١ من سورة المجادلة.

(٣) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام.



﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (1)

ومن تمام المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام أن كان دمها مساوياً لدمه، والحكم فيها واحد إذا وجب القصاص.

ذلك قول الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ ﴾ (2)

حيث قصد بهذه الآية إبطال ما كان عليه العرب من الإسراف في القتل وعدم اتخاذ (القصاص) فيه أساساً للجزاء، حيث كانوا لا يقتصرون في الجزاء على القاتل؛ بل كانوا يقتلون بالعبد إذا قتله عبد ـ سيداً من سادات العبد القاتل..

كما كانوا ـ إذا قتلت المرأة ـ لا يقتلونها قصاصاً، وإنما يقتلون رجلاً من قبيلة القاتلة.

وهذا الواقع الذي كان عليه العرب يوضح لنا المقصود من ظاهر هذه الآية ومن مقابلة الأصناف الواردة فيها، ومن ثم فلا دلالة لمفهوم المقابلة في الآية على أن الرجل لا يقتل بالأنثى ولا على أن الحر لا يقتل بالعبد.

(1) الآية ١٣٠من سورة النساء.

(2) من الآية ١٧٨ من سورة البقرة.



المساواة بين الرجل والمرأة في الدية:

كان من مقتضى تسوية القرآن بين الرجل والمرأة في الإنسانية أن القصاص هو الحكم بينهما في الاعتداء على النفس وكانت جهنم والخلود فيها وغضب الله ولعنته، هو الجزاء الأخروي في قتل المرأة كما كان هو الجزاء الأخروي في قتل الرجل وكانت الآية في قتل كل منهما خطأ واحدة دون تمييز بين الذكر والأنثى.

ذلك قول الله تعالى:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾(١)

إذ الآية لم تفرق في هذا الحكم - في وجوب الدية بالقتل الخطأ - بين الذكر والأنثى؛ حيث جاءت عبارتها عامة مطلقة لم تخص الرجل بشيء منها عن المرأة ولم يختلف الفقهاء في هذا الفهم، وإن اختلفوا في مقدار الدية وهل الرجل والمرأة فيه سواء.

فذهب البعض إلى أن دية المرأة على النصف من دية الرجل في القتل الخطأ.

وذهب آخرون إلى المساواة في مقدار الدية.

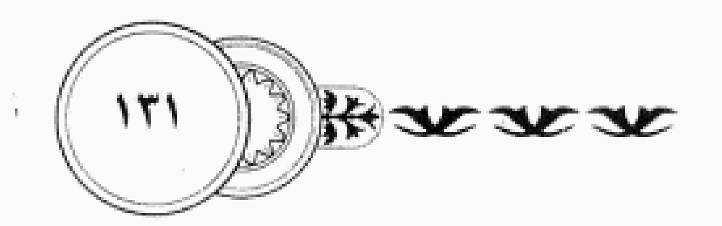
وهذا هو ما يؤكده إجماع الفقهاء على أن الرجل والمرأة داخلان في حكم هذه الآية؛ ومن ثم وجبت المساواة بينهما في مقدار الدية، كما تساويا في وجوبها..

انعقاد الزواج بعبارة النساء:

قد يقال إن الإسلام أقام على المرأة حجراً في أن تزوج نفسها؛ أي أن تباشر عقد زواجها بنفسها أو تنوب عن غيرها في عقد الزواج. وفي ذلك انتقاص لشخصها ونقص مساواتها بالرجل في خصوص عقد الزواج حيث ترى أكثر

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة النساء.



المذاهب الفقهية الإسلامية حرمانها من تولي هذا العقد وأن لوليها - إذا كانت بكرًا - أن يجبرها على التزوج بمن لا تريد ودون أن تُستشار أو يؤخذ رأيها.

وحقًا قد اختلف الفقهاء في صحة عقد الزواج إذا باشرته المرأة لنفسها أو وكيلة عن غيرها، وإذا كان ثَمَّ خلاف إلا أنه يمكن القول بأن آيات من القرآن الكريم قد أضافت عقد الزواج بعبارة صريحة إلى المرأة نفسها وحذرت الرجال من منعها من هذا الحق.

من هذه الآيات قول الله سبحانه:

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾(١)

وقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ﴾(٢)

وصحت الأحاديث الكثيرة في وجوب استئذان البكر مع مراعاة ما يغلب عليها من حياء، فلم تطلب الأحاديث ضرورة تصريحها بالرضا وطلبت ذلك بالنسبة للثيب؛ أي التي سبق لها الزواج.

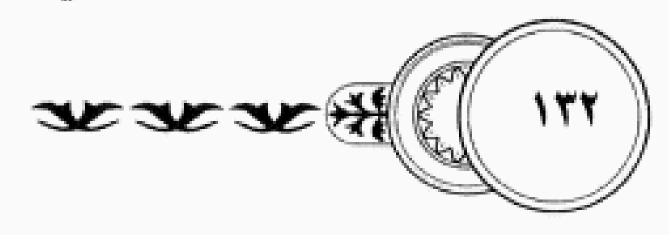
من هذا قول الرسول ﷺ: "الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر يستأذنها أبوها في نفسها وإذنها صماتها"(٣).

وروى البخاري ومسلم أن خنساء بنت حزام زوجها أبوها وهي كارهة وكانت ثيبا، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها.

(١) من الآية ٢٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.



أي أبطل هذا العقد.

كما رُوي في كتب السنن من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما أن جارية بِكْرًا أتت النبي ﷺ فذكرت أنا أباها زَوَّجها وهي كارهة. فخيرها النبي ﷺ بعد أن جعل الحق لها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء.

وقد أخذ فقه المذهب الحنفي بهذا وأجاز للمرأة البالغة العاقلة الرشيدة أن تتولى عقد الزواج لنفسها ولغيرها.

هذا وأنه مع هذا الحق قد أُجيز لعصبة المرأة بالترتيب حق الاعتراض إذا زوجت نفسها بغير كفء لها باعتبار أن الزواج صهر بين أسرتين.

حظ المرأة من الميراث:

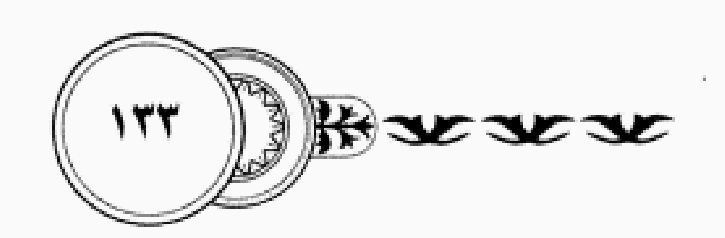
إن القرآن حين قرر أن ميراث الأنثى على النصف من ميراث الرجل. في قول الله تعالى في سورة النساء في آية المواريث:

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (١)

لم يكن منتقصًا من إنسانية المرأة واعتبارها أقل من إنسانية الرجل، وإنما معناه: ما قضت به طبيعة المرأة في الحياة العامة وأعباء الرجل فيها، فقد تحمل الرجل نفقات الأسرة من زوجة وأولاد وأقارب.

وتحمل كذلك المهر الذي يقدمه للزوجة عنوانًا على رغبته في الاقتران بها. وكانت أعباء المرأة غالبا: تدبير البيت وشؤون الحمل والإرضاع بعد الوضع والتفرغ لحضانة الأطفال والقيام على أمورهم.

(١) من الآية ١١ من سورة النساء.



وبالموازنة بين هذه الحقوق وتلك الواجبات المقررة لكل من الرجل والمرأة يتضح أن الرجل قد كثرت واجباته وثقلت تبعاته وكانت المرأة في هذه أسعد منه حظًا، وأقل تبعة، وهذا هو القرآن يقرر تبعات الرجل فيقول في سورة النساء تقريرًا للمهر دون تحديد لأكثره:

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾(١)

ويقول في ذات السورة:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ ﴾(٢)

وفي شأن وجوب النفقة قال الله ـ تعالى ـ في سورة الطلاق.

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾(٣)

وأوجب لها نفقة العدة بعد الطلاق على نحو ما وجبت لها حال قيام الزوجية.

كما جاء في سورة الطلاق في الحديث عن العدة بعد الطلاق وأحكامها وحقوق المطلقة:

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾(٤)

---

(١) الآية ٤ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٢٠ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٧ من سورة الطلاق.

(٤) من الآية ٦ من سورة الطلاق.

وأوجب لها المتعة وهي ما يبذله الرجل لامرأته بعد الطلاق فوق نفقة العدة.. ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]

وهكذا كانت المرأة أسعد حظًا من الرجل وأقل تبعة ومن ثم كان التفاضل في الميراث في أغلب صُوَرِه.

شهادة المرأة

جاء في آية المداينة في سورة البقرة قول الله – سبحانه –:

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[2]

فقد صرحت هذه الآية بأن المرأتين تحلان محل رجل في الشهادة وأن الأصل الاستشهاد برجلين، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان.

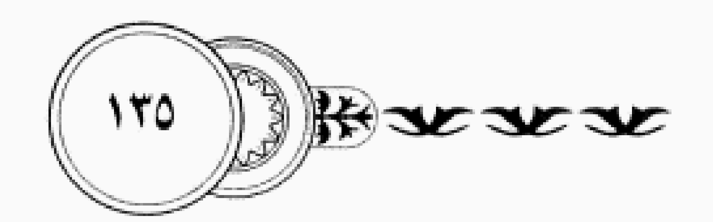
وليس هذا الذي قررته الآية انتقاصا من أهلية المرأة أو إنسانيتها. وإنما جعلت شهادة المرأتين مقابل شهادة رجل واحد؛ لأن النسيان أسرع إليها من الرجل، وإلى هذا المعنى أشارت الآية:

(أن تضل إحداهما «أي تنسى» فتذكر إحداهما الأخرى).

ولأنه في الأغلب ليس في شأن المرأة الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، ومن هنا يكون إلمامها بما لا يهمها حال أن الرجل يمارس غالبًا

(١) الآية ٢٤١ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.



هذه المعاملات فتكسبه الممارسة إلمامًا بقضاياها، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويمارسونها ويكثر اشتغالهم بها.

ومن ثم قبلت شهادة المرأة ـ وحدها ـ فيما لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها: كالولادة وعيوب النساء والبكارة كما اقتصر على الرجال في القضايا التي قد تثير عاطفة المرأة كالحدود..

هذا ولقد جعل القرآن شهادة المرأة كشهادة الرجل في (اللعان) وهو ما شرعه الله في القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجته دون أن يكون لديه دليل على اتهامه.

ذلك قول الله تعالى في سورة النور:

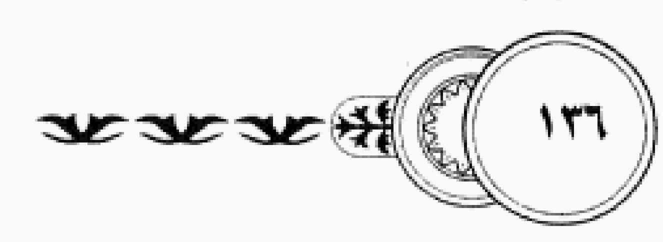
﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

فتلك شهادات أربع من الرجال يعقبها استنزال لعنة الله عليه إن كان كاذبًا في اتهامه لزوجه ويقابلها ـ ويبطل أثرها ـ أربع شهادات من المرأة يعقبها استنزال غضب الله عليها إن كان من الصادقين..

تلك عدالة الإسلام في توزيع الحقوق بين الرجل والمرأة.

وهي عدالة تحقق أنهما في الإنسانية سواء..

(١) الآيات ٦:٩ من سورة النور.



ونحن نستعرض حديث القرآن عن المرأة وما لها من حقوق وما عليها من واجبات نتحدث عن بعض الأمور التي أثيرت أخيراً في مجتمعنا لنتعرف على حكم القرآن فيها:

اختلاط الرجال والنساء

إن الإسلام قد أباح للمرأة أن تشارك في الحياة العامة للمجتمع نجد هذا مقرراً في قول الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾(1)

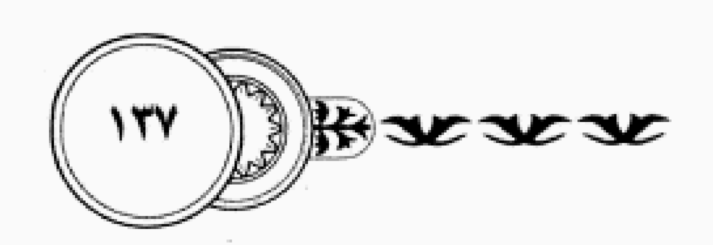
أليست هذه الآية قد قررت أن للمرأة أن تشترك في الأمور العامة بخروجها لمبايعة الرسول ﷺ والتعاهد معه على هذه الأصول العامة: للدين وللحياة وللقيام بحدود الشريعة وأحكامها التزاماً بشرع الله.

وقد صح أن عمر بن الخطاب كان يحلف المرأة المهاجرة:

"بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض" و"بالله ما خرجت من بغض زوج." وبالله ما خرجت التماس دنيا. وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله."

ولقد نقلت كتب السيرة والتاريخ أن عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنه - ظل ثلاثة أيام يستشير الناس فيمن يخلف عمر - رضي الله عنه - من الستة المرشحين، فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره وهذا إجماع من الصحابة.

(1) الآية ١٢ من سورة الممتحنة.



ونقل القرآن ذلك الحوار التشريعي بين رسول الله ﷺ والمرأة التي ظاهر منها زوجها حيث افتتحت (سورة المجادلة) بقول الله سبحانه ـ:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾ (١)

حيث نقل أن سبب نزول هذه الآية وما بعدها: أن أوس بن الصامت قال لزوجه خولة بنت ثعلبة: أنت عليَّ كظهر أُمِّي. وكان مثل هذا القول يحرم المرأة على زوجها في الجاهلية، ثم أراد منها ما يريده الرجل من زوجه فامتنعت وقالت:

والذي نفس خولة بيده لا تضل إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ﷺ. فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت له بطني جعلني كأُمِّه وتركني إلى غير أحد فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله فقال الرسول ﷺ: (ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن، وما أراك إلا حُرمت عليه. قالت: ما ذكر طلاقا وجادلت رسول الله ﷺ مراراً ثم قالت: إن لي صبية صغاراً. إن ضمهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: إنني أشكوا إليك اللهم فأنزل على نبيك وما برحت حتى نزلت آيات الظهار في سورة المجادلة.

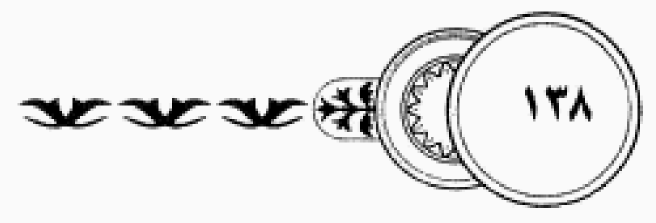
وهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين خطب الناس فنهاهم عن الغلو في مهور النساء وجعل للمهر حداً أقصى أربعمائة درهم، فاعترضت امرأة على قوله وقالت: أو سمعت قول الله:

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٢)

---

(١) الآية ١ من سورة المجادلة.

(٢) من الآية ٢٠ من سورة النساء.



فرجع عمر عن قوله وقال: اللهم اغفر كل الناس أفقه من عمر.

فلم تكن المرأة في تاريخ الإسلام محصورة في البيت لا تبرحه ولم تكن كذلك لا تتحدث مع الرجال ولا تحضر مجالسهم ولم تكن ممنوعة من مزاولة العمل المناسب لها؛ بل كانت مشاركة في الحياة العامة.

والمشاركة تقتضي مخالطة المجتمع التي تمكنها من أداء أعمالها وقضاء كل احتياجاتها في حدود شرع الله.

ولقد كانت النساء يؤدين الصلاة في المسجد مع جماعة المسلمين في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده.

وقد كن يخرجن لصلاة العيدين ويشاركن الرجال في التكبير، وقد كن يخرجن مع الجيش في الحرب.

ثم أليس الحج فرضاً على الرجال وعلى النساء وتؤدي النساء هذه الفريضة.

ومن ثم فإن خروج النساء واختلاطهن بالرجال مخالطة مشروعة في الأسرة والمجتمع.

والعمل أمر مباح بشرط ألا ينفرد رجل وامرأة: وبشرط عدم التبرج، حيث نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة فقال:

(لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما)[1]

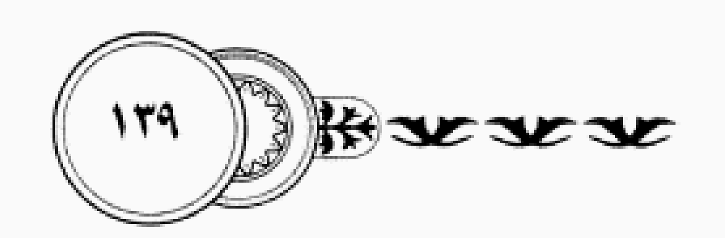
ونهى القرآن عن التبرج فقال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[2]

---

(١) رواه الطبري .

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.



الاختلاط الأسري

في تشريع القرآن للأسرة ما يرشدنا إلى أن تزاور الأسر مشروع، وأن قيام النساء بالواجبات الاجتماعية مباح:

ففي البخاري في (باب عيادة النساء الرجال): أن أم الدرداء عادت رجلا مريضًا من الأنصار في المسجد، وأن عائشة - رضي الله عنها - عادت بلالاً - وهو مريض - قبل نزول آية الحجاب الخاصة بنساء الرسول ﷺ.

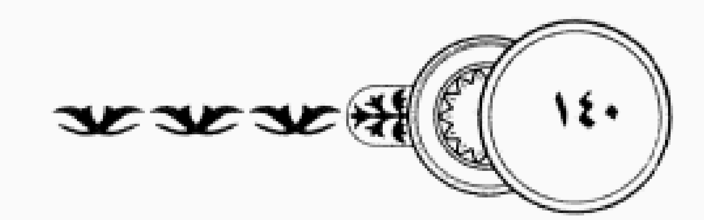
ولا يعني هذا إباحة المجالسة بين الرجال والنساء على النحو الذي شاع في كثير من المجالس والنوادي حاسرات ومتبرجات، وإنما أباح الإسلام الاختلاط غير المحرم وفي المجالس التي تفيد والتي لا تؤدي إلى المفاسد والضلال.

فالزيارات واللقاءات العائلية الملتزمة لا شيء فيها والمحظور أن تتخذ هذه اللقاءات وسيلة لدخول الرجال والشباب بيوت الغير دون استئذان أو في غيبة الأزواج منعًا للخلوة غير المشروعة.

واختلاط البنين والبنات بعد البلوغ أمر غير مشروع؛ بل يرقى إلى درجة المحظور سداً للذرائع إلى الفساد، لاسيما في سن المراهقة التي تتغلب فيها الرغبات الجامحة على العقل وفي ظل انعدام الالتزام بآداب الإسلام في الملابس وفي الحديث والمخالطة.

سورة النور فصلت آداب الزيارات:

لنسمع قول الله سبحانه ونعمل به



﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

فأية حصانة وحماية للبيوت بعد هذه الأوامر الإلهية التي صانت الحرمات وحفظت الأسرار، ولننظر في حرص رسول الله ﷺ على تعليم المسلمين هذه الآداب حين سأله رجل - بعد نزول هذه الآيات (قال: أأستأذن على أمي؟ قال: نعم. قال الرجل: ليس لها خادم غيري أأستاذن عليها كلما دخلت؟. قال الرسول ﷺ أتحب أن تراها عريانة؟. قال الرجل: لا. قال الرسول: فاستأذن عليها)[2]

هذه آداب يجب أن نحرص عليها وأن يحرص عليها أولادنا.

زي المرأة

آيتان في القرآن حددتا ما يجب أن تكون عليه المرأة إذا خرجت من بيتها أو استقبلت غير زوجها ومحارمها..

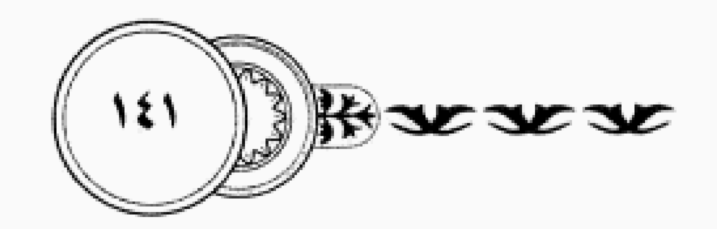
إحداهما قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾[3]

(١) الآيات ٢٧:٢٩ من سورة النور.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره.

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأحزاب.



والآية الأخرى قول الله سبحانه:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[(١)]

والجلابيب، وأحدها جلباب وهو: ما يلبس فوق غيره من الملابس ليستر ما تحته. وهاتان الآيتان متكاملتان وقد حددتا ما يجب أن ترتديه المرأة، بحيث يحجب جسدها كله فلا ينكشف من المرأة الملتزمة إلا الوجه، وهو من منبت الشعر إلى أسفل الذقن، وما بين شحمتي الأذنين، بحيث لا يظهر شيء من الشعر ولا القرط (الحلق ولا الأذن) ولا شيء من العنق. ولا يكون الثوب مظهراً لما تحته، ولا ضيقاً وصَّافا يفصل أجزاء الجسد، ولا لافتاً للنظر بلون أو تفصيل يسترعي أنظار الآخرين ويدخل في حكم التبرج المنهي عنه في القرآن الكريم؛ فالمطلوب من المرأة ـ بمقتضى هاتين الآيتين ـ أن تغطي رأسها ورقبتها وصدرها وأن يكون ثوبها ساتراً لجميع جسدها، فلا يُرى منه إلا الوجه والكفان.

(١) الآية ٣١ من سورة النور .

هـذا هـو زي المـرأة المقرر بالقرآن الكـريم، ولـقد فسر الرسول ﷺ قـول الله سبحانه في آية (إلا ما ظهر منها) وقال: الوجه والكفان.

النقاب، وهو: (ما تضعه بعض النساء على الوجه) غير لازم كما يدل على ذلك حديث أسماء[1] رضي الله عنها حين دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثوب رقيق يظهر ما تحته، فأعرض عنها وقال: "يا أسمـاء: إن الـمرأة إذا بلغـت المحيض لا يصلح - أو لا يحل أن يُرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه" ﷺ.

ولو كانت تغطية الوجه من الواجبات، لأمرها بذلك الرسول ﷺ، ولكن مقتضى الحديث أنه ليس بلازم، بل يحل كشفه.

ولقد اتفق الفقهاء أخْذاً من الواقعات الكثيرة الواردة في السنة على أن للمرأة أن تبدي وجهها في الصلاة ولو رآه الغرباء.

فما تفعله بعض السيدات والبنات من تغطية الوجه من باب المغالاة في الدين هو عمل شخصي وليس بحكم شرعي.

وإذا أجاز الإسلام للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها، فإنه يرفض أن تستعمل المرأة الألوان والأصبا غ والظلال لتثير الناس وتستلفت الأنظار إليها. فإن كل ذلك - وما يفعله كثير من النساء الآن - يدخل في باب المحظور.

وإنما المـباح مما ظهر مـن الزينة ما لا يستلفت الأنظار ولا يثير الغرائز ولا يشوه المنظر ولا يغير خلق الله، وإلا كان محرمًا قولاً واحداً وإن جرت به العادة أو المألوف بين الناس..

المصافحة بين المرأة وغير محارمها

لما قدم رسول الله ﷺ من (الحديبية) عام ست من الهجرة، جمع نساء الأنصار وأرسل إليهن عمر بن الخطاب للمبايعة. فتلا عمر عليهن آية المبايعة من سورة الممتحنة. فقلن: نعم. فمد عمر يده خارج الباب، ومدت النساء المبايعات أيديهن

(١) رواه أبو داود.

من الداخل، ثم قال: اللهم أشهد. وقد وضع عمر يده في أيديهن مبايعًا وبلا حائل، وعمر هو عمر ـ غَيْرَةً وورعًا وشدةً.[1]

أما أن الرسول ﷺ لم يبايع النساء بيده أو لم يسلم على امرأة أجنبية، فتلك من خصوصياته كالوصال في الصوم.

ومن ثم، فعدم المصافحة بين بعض الرجال والنساء يدخل في باب التورع الشخصي، وليس محرمًا؛ إذ لم يرد نص محرم حاسم.

ذلك بيان لواقع المصافحة باليد لمجرد المصافحة. أما ما يفعله بعض الناس من الإمساك بيده امرأة أجنبية بحجة المصافحة والتسليم، فذلك يدخل في باب المحظور سدًا للذرائع والإثارة.

يتطرق بنا الحديث إلى بيان حكم اللمس، وهل ينقض الوضوء؟

في فقه الشافعي: "إن لمس المرأة غير المحرم للرجل (كالأم والبنت والأخت والخالة والعمة والجدة) ناقض للوضوء، فلمس الرجل يد زوجته، أو جزء من جسدها مباشرة ناقض لوضوئهما."

وفي فقه المالكية والحنابلة: "أن اللمس بشهوة ناقض للوضوء وإلا فلا ينقض."

وفي الفقه الحنفي: "أن لمس المرأة زوجة أو غيرها لا ينقض الوضوء، ويفسرون (أو لامستم النساء) بالتعامل بين الزوجين."

وأدلة الفقة الحنفي في هذا أرجح وأقوى. وما انتهى إليه هذا الفقه أيسر على الناس.

هل قدم المرأة عورة يجب سترها؟

الفقه المالكي والحنفي: يقرران أن القدم من العورة بالنسبة للمرأة لآثار وردت صحيحة عند فقهاء المذهبين.

---

(١) أخرجه الأئمة أحمد والبيهقي وابن خزيمة وابن حبان.

ويرى غيرهم أنها عورة لما يدل عليه قول الله تعالى:

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾(١)

وعلى أية حال فإن الأوْلَى ستر القدم لأن الساق والقدم غالبًا ما تكون ملفتة للنظر ومدعاة للفتنة.

صوت المرأة وهل يعتبر عورة؟

يجري على الألسنة دائمًا أن صوت المرأة عورة، وهذا القول على عمومه وإطلاقه لا يستند إلى دليل صحيح في الإسلام.

وإنما الصحيح والمنقول أن النساء على عهد الرسول ﷺ كن يحادثن الرجال ويسألن الرسول في أمور الدين ويتقاضين أمامه ويذهبن إلى الأسواق، ويمارسن نشاطهن، متحدثات ومجادلات: وكان منهن راويات للحديث إلى الرجال وشاعرات وفقيهات ولم ينه الرسول ﷺ ولا أحد من أصحابه النساء عن مجرد الحديث مع الرجال. فالقول بأن صوت المرأة عورة بإطلاق لا سند له.

وإنما يصبح - كذلك - إذا صاحب الحديث تكسر وطراوة وتدليل وتكلف على الوجه الذي نهى عنه القرآن في قول الله تعالى:

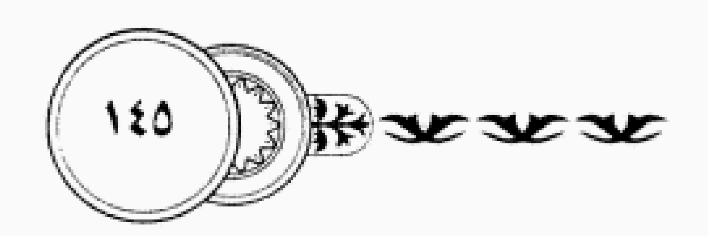
﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾(٢)

يعني ذلك ألا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال وتخرجن عن المألوف في المحادثة من الكلام العف الحسن دون لين ولا تكسر. فالحديث مع الرجال الأجانب غير الحديث مع الأزواج. وليس هذا عدم ثقة بالنساء، وإنما حماية لهن ممن لا خلاق لهم من الرجال.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة النور.

(٢) من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.



ومن ثم، فإنه محظور شرعًا على المرأة أن تحادث الرجال الأجانب بطريقة تغريهم بها؛ بل ينبغي أن يكون حديثها مستقيمًا لا لين فيه حتى لا يطمع فيها من كان في قلبه مرض وغرض.

عمل المرأة خارج بيتها

إن الإسلام قد كفل للمرأة: زوجًا وأما وأختًا وبنتًا أن يعولها الرجل ويقوم على كافة ما يلزمها من نفقات، وفرغها لمهمة عظمى يعجز عنها الرجل تلك هي تربية الإنسان.

الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض ليعمرها، ولتزدهي به كانت الأم له منبتة، تحمله كرهًا، وتضعه كرهًا، ثم تقوم على إرضاعه وفطامه، وبين يديها يتعلم الحديث، ويدرك ما حوله ويتعلم الأسماء كلها. فمهمتها أكبر من أن تُشْغَلَ عنها أو تقارن بغيرها أو تقابل بمال. وليس معنى هذا أننا نرى منع المرأة من العمل خارج بيتها ولكنا نقول:

إن المرأة تعمل إذا احتاجت العمل، أو احتاجها العمل. فالعمل خارج البيت للمرأة ليس ترفًا ولا مهنة؛ وإنما حاجة وضرورة.

فإذا استغنت المرأة بمال أبيها أو زوجها وكسبه كان قيامها بمهمتها الأولى - تربية الإنسان - هي مهنتها، وهي حاجتها، وهي كل أملها ووظيفتها ولننظر في واقعنا وكيف خلا البيت من الأب والأم بانشغالهما وكيف صار حال الأولاد في التعليم والأخلاق، وكيف اختلطت عليهم أمور الحياة حيث تخلى عنهم الرقيب الموجه، ولنقارن بين كسب المال - دون ضرورة أو حاجة، وخسارة الأولاد، وانتقاص تربيتهم بتركهم في فراغ مفسد وبين قرناء يجرونهم إلى ما لا تحمد عقباه، والحوادث المنشورة في هذا أشهر من أن تحصى أو تذكر والمستور منها أكثر.

إن على كل أسرة أن تراجع موقفها وأن تعرف أن صناعة الإنسان (الأولاد) أعلى وأغلي صناعة، وأن الأم ألزم وأقدر، وأنه إذا لم يكن بالأسرة ضرورة أو حاجة لكسبها من عملها فَأَوْلَى بها ثم أولى أن ترعى زرعها لتنعم، وتقر عيناً بثماره.

ليست هذه دعوة للتخلي ـ بوجه عام ـ عن العمل. وإنما هي دعوة للمراجعة والمفاضلة بين المكسب والخسارة ككل تجارة؛ إذ يُقبل كل تاجر على البضاعة الرابحة وليس أربح من أن تتاجر الأم وتنمي جزءها: أي أولادها أكبادها الذين يمشون على الأرض.

مشكلات الشباب

من هم الشباب؟

إنهم أصحاب مرحلة من العمر تمتاز بوفرة النشاط وقوة الجسد وسعة الأجل الطموح.

هم ـ دون تعرض لتحديد السن ومتاهات بحوثه: قوة لا تعدلها قوة في إثراء الحياة بالخير والنهوض بالمجتمع.

الشباب في كل جيل موضع الفخر والاعتزاز ومحط الأمل والرجاء، وقفوا في الصفوف الأولى في كل مكان وخاطروا بأرواحهم على متون الطائرات وبين أمواج البحار في السفن، والغائصات وبجهدهم استخرجت كنوز الأرض وقامت النهضة وبطموحهم كانت حركات التحرير وصيحات الاستقلال.

وإذا كان للشباب هذه المنزلة وتلك المهام في حياة الأمة كان من الحتم إحسان التوجيه إليهم في الرعاية والتربية في نطاق أحكام القرآن والسنة.

وحين نتابع أسباب مشكلات الشباب في عصرنا وانحرافاته، نجد أنه يمكن إجمالها فيما يلي:

١- الفراغ الديني وسوء فهم حقيقة الدين والتربية.

٢- الانسلاخ من القيم الدينية والأخلاقية.

٣- الاستهانة بالوالدين وبالمربين.

٤- المفارقة بين الوعي الأخلاقي وبين الوعي الديني مع أن الإسلام ربط بينهما.

٥- الانحراف بالتدين لدى البعض في الغلو ومحاولة فرض الرأي دون تفرقة بين الدين والتدين.

٦- الأفكار الوافدة في صور عادات أو ثقافات دون القدرة على تمييز ما لا يصلح لمجتمع المسلمين.

٧- ضآلة المعارف والمعلومات التي تُمكن الشباب من مواجهة الأفكار الوافدة والوقوف على حقيقتها وانحرافاتها.

٨- سوء وقصور التوجيه الذي يتلقاه الشباب سواء في المدرسة أو في نطاق الأسرة أو في الشارع أو في وسائل الإعلام المختلفة.

٩- افتقاد القدوة الرائدة في كل هذه المواقع.

١٠- سوء فهم الوالِدين والمربين لواجباتهم نحو الشباب حيث يقتصر الوالدان على توفير الإيواء والغذاء والكساء ويكتفي المربون بشرح الدروس وإملائها دون التحام بالشباب وتعرف دخائلهم ونصحهم وتوجيههم إلى محاسن الأخلاق والعادات.

١١- التركيز على الماديات والوصول إليها كمثل أعلى وهدف وحيد في الحياة. الأمر الذي صرف الشباب إلى هذه الغاية ولم يعد يختار الطريق السوي لتحقيق أهدافه المشروعة وانصرف بذلك عن الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية، باعتبار أن تلك القيم من معوقات حصوله على ما يريد من ملذات وماديات.

١٢- الشعور بالضياع، وعدم الانتماء إلى أمة ذات كيان اجتماعي مترابط وذلك لما يبدو للشباب في تناقض بين الأقوال والأفعال الصادرة عن الكبار.

١٣- سوء الفهم للحرية. الأمر الذي لم يجعل الشباب مستفيداً من النصح والتوجيه.



١٤- سوء فهم الحقوق والواجبات وانطباع الشباب على عدم الجدية في التصرفات نتيجة القصور في التوعية في سن مبكرة وملء أوقات الفراغ بالنافع والمشروعات: الفردية والجماعية.

١٥- انشغال الكبار عن الأجيال اللاحقة بهم وإغلاق باب الحوار وانقطاع التلاقي بينهم مما أدى إلى انفصال الشباب بفكر ديني واجتماعي في الأغلب غير رشيد.

١٦- قصور منهج التربية الدينية في كل وسائل التربية: مدرسية ومنزلية وإعلامية.

فلا يكفي في هذا المنهج التكليف بحفظ بعض النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية دون تعريف بالسلوكيات والآداب والأخلاق بما يعالج واقع المجتمع ودون المواءمة بين المعلومات وسن التعليم.

١٧- إن التثقيف العام ـ وهو واجب وسائل الإعلام ـ غير مواكب للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وشرحها وربطها بالدين بتوجيهات صحيحة بسيطة.

١٨- تركيز الكثير من مواد الإعلام على الإثارة وإخفاء الأهداف.

١٩- الأمراض الاجتماعية وإهمال مواجهتها بقدر متفق عليه من العلم والمعلومات، ثم التقليد الأعمى للغير دون مراعاة لسمات المجتمع الإسلامي.

تلك أهم العناصر التي جنحت بالشباب عن الطريق السوي.

وفي القرآن والسنة وأحكام الإسلام بوجه عام تصحيح المسار.

الإسلام ومواجهة مشكلات الشباب

وطرق بناء الإنسان بوجه عام

١- لقد كانت أول آيات أنزلت من القرآن الكريم على رسول الله محمد ﷺ افتتاح سورة العلق:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[1]

وبهذا أوضح القرآن أن للإنسان رحلتين: رحلة الخلق والتكوين ورحلة العلم. وهذه الأخيرة تتشعب وتتسع آفاقها متى أحسنت تربية الإنسان في ظل الإيمان.

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2]

فالإيمان هو طريق الرشد للإنسان، ثم الإخاء الإنساني، إذ الإسلام لا يعرف تفرقة بين بني الإنسان فالكل سواء في الإنسانية كما هم سواء في الخلق: أسرة كبيرة تربطها صلة الأرحام.

ذلك قول الله – سبحانه – في سورة الحجرات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾[3]

ومن هذه السبل تلاوة الكتاب: أي القرآن.

---

(١) الآيات من ١:٥ من سورة العلق.

(٢) الآية ٥ من سورة العلق.

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

ومؤدى هذا أن المنقذ من العلل الاجتماعية والنفسية والاقتصادية وكل علل المجتمع هو الدِّين به تستقيم أمور الحياة ويعرف كل من الفرد والجماعة واجباتهم وحقوقهم.

الدين الذي بَيَّنَهُ القرآن وسنة الرسول ﷺ عقيدة وعبادة وخلقًا وسلوكًا وعملاً وفي القرآن كل شيء إذا أحسنا تلاوته وفهمه وتدبر آياته.

ومن وسائل الإنقاذ ما جاء بـ سورة (آل عمران) حيث قال تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]

جاءت الآية لتزكي الأخلاق، وتطهر النفس، وتعلم الكتاب والحكمة التي هى - والله أعلم: سنة رسول الله ﷺ وبهذا تكون هذه الآية قد جمعت كل عناصر الإصلاح والاستقامة التي بها تحيا نفوس الشباب وغيرهم من أفراد الأمة وتنضبط عواطفهم وترتقي مشاعرهم وخواطرهم ويحملون المسؤولية مسؤولية هذه الحياة بعقل وروية.

وفي هذه العناصر التي جاءت بها هذه الآية الشفاء من أمراض القلق والشرود التي أصابت الشباب بل والكبار، وفيها الدواء لكل الأمراض الاجتماعية والنفسية والتي تنعكس أمراضًا عضوية يحاول الناس التداوي منها بالعقاقير وبالمخدرات والمسكرات. تلك التي شاعت وصارت وباءً وبلاءً ولا منجاة من كل هذا إلا

(١) من الآية ١٦٤من سورة آل عمران.

بالتحريم الحازم لكل مسكر ومخدر والأخذ على يد كل من ينشر هذه الموبقات، وكل من يتعاطاها وصدق الله سبحانه في وصف العلاج والوقاية في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) ﴾[1]

ذلك قول الله سبحانه في سورة التحريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (٦) ﴾[2]

وفي هذا توجيه من الله سبحانه، وتحميل المسؤولية على كل قَوَّام على تجمع إنساني سواء في الأسرة أو في المدرسة أو في المصنع أو في المتاجر أو في المساجد أو في الجامعات.

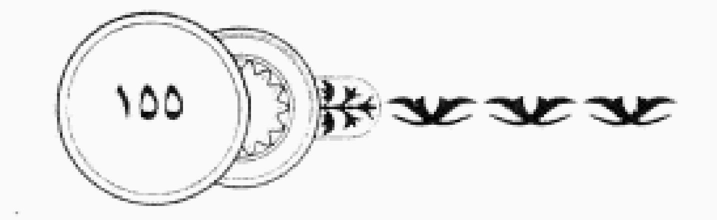
إن أقصر الطرق وأقومها إلى الاستقامة والسلامة: الوقاية فالكل يتحصن ضد الأمراض والأوبئة الجسدية ونجد ونجتهد في الوصول إلى الأدوية للوقاية من هذه الأمراض.

ومع هذا نهمل عمداً وقاية أنفسنا وأهلينا وعلى الأخص أولادنا من أمراض هي أشد فتكًا، وأفدح ضرراً على المجتمع.

---

(١) الآيات ٩٠:٩٢ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ٦ من سورة التحريم.



تلك الأمراض تتمثل في الفراغ الديني المخيف الذي تاه فيه الشباب، ولم يصلوا إلى بر الأمان ولن يصلوا حتى يرشدهم الراشدون من الآباء والمعلمين وحتى نأخذ بأيديهم؛ بل وعلى أيديهم لتستقيم نفوسهم رغبةً لا رهبةً.

وكما نحصنهم من الأوبئة نحصنهم من الخمر فنحرمها عرضاً وبيعاً وإنتاجاً في كل مكان، ونحرم القمار والمخدرات ونطارد بحزم كل من يعرض هذه الموبقات المهلكات وكل من يتعاطاها.

إن فعلنا ذلك ضمنا السلامة والاستقامة لكل أفراد هذه الأمة.

إن هذه الآية ترشدنا إلى أهمية التربية الدينية الصحيحة في الأسرة والمدرسة والجامعة والمصنع والحقل وتحث على العناية بالأولاد بدنياً وعقلياً وثقافياً وروحياً وخُلقاً وسلوكاً.

ولقد شرع الإسلام الأحكام التي تسلك بنا سبل الرشاد وتحض على تحمل المسؤولية. فهذه السنة الشريفة تلزم الوالدين بتعليم الأولاد الصلاة في سن السابعة وتلك أول خطوة نحو الوقاية والتحصين ضد المغريات المفسدات في الحياة حتى إذا ما اعتادوا الصلاة نشأوا أصحاء أقوياء: جسداً وعقلاً، ظاهرهم النظافة وباطنهم الطهارة وهذه وقاية إيجابية أرشد إليها القرآن وأوضحها رسول الله ﷺ في العديد من ارشاداته سواء في ذلك الفرد والأسرة والمجتمع. وينبه القرآن الكريم إلى أن شأن القوة خطير ولها أثر كبير في التربية.

ذلك قول الله سبحانه فى سورة الطور:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾(١)

---

(١) الآية ٢١ من سورة الطور.

تلك هي القدوة ـ الحسنة أما القدوة السيئة ففيها قول الله سبحانه:

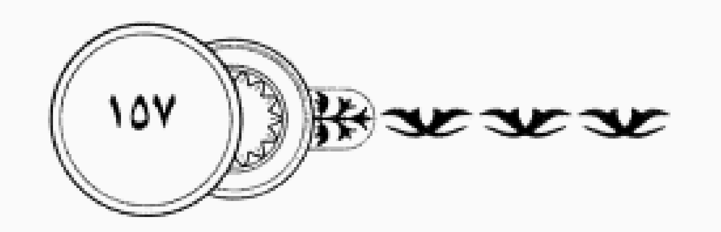
﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾(١)

ومن هنا كانت مساءلة الآباء أولا: عن تربية الأولاد والمحافظة عليهم، وفي تأكيد هذا وبيانه جاء الحديث الشريف:

« ما نحل والدٌ ولداً أفضل من أدب حسن ».(٢)

(١) الآيتان ٦٩ ،٧٠ من سورة الصافات.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره.



خطوات الإنقاذ
كما أرشد إليها القرآن الكريم

إن الآية التي سبق أن تلوناها من قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾(١)

هذه الآية تعتبر حاوية لوسائل إنقاذ الناس من الضلال الذي هو سبيل الهلاك.

وتلك الوسائل - على ما أفادت هذه الآية - هي:

أن الرسول المرسل من الله يأتي من بين قومه ناطقًا بلغتهم كما جاء في قول الله – سبحانه وتعالى–:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾(٢)

وهذا يرشدنا إلى أن الأمراض الاجتماعية والنفسية تحتاج إلى خبراء من ذات البيئة؛ لأنهم هم الذين يعرفون العادات ويعرفون الإسلام؛ فهذا واحد من سبل الإنقاذ.

ولا يتعارض الإخاء الإنساني مع الإخاء الإسلامي؛ بل هما ملتقيان؛ لأنهما من أحكام الله، وقد يفترقان، ولكنهما في الإسلام سماحة وإخاء وتبادل مودة واحترام.

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٤ من سورة إبراهيم.

ولقد اعتبر الإسلام العلم والتعليم فريضة على كل مسلم، والعلم المطلوب هو كل علم نافع للإنسان في حياته ولأجياله.

والأخلاق هي أساس أصيل في تقويم الحياة، ومكارم الأخلاق هدف إنساني إسلامي، ولقد امتدح الرسول بالخلق، فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (١)

وإذا استقامت الأخلاق استقامت أمور الأمة شباباً وشيباً.

وفي سبيل تربية الشباب جاء القرآن الكريم موجهاً إلى واجبات الوالدين، ففي قول الله سبحانه:

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ ۝٢٣٣ ﴾ (٢)

وفي قول الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۝٦ ﴾ (٣)

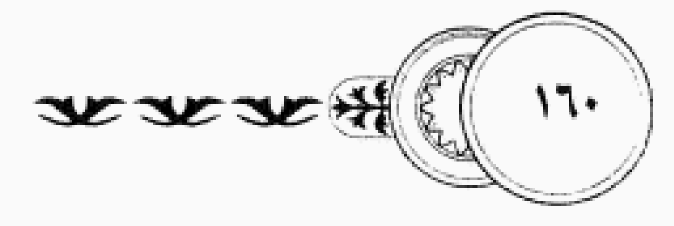
وفي أحاديث رسول الله ـ ﷺ:

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦ من سورة التحريم.



"أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم."(١)

"إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته."(٢)

وفي شأن عناية الإسلام بالشباب في الدين والعقل والجسد والخلق جاء في الحديث الشريف عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: وشاب نشأ في عبادة الله... » (٣)

وفي الأدب والأخلاق ورد في الأثر: "لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع."

وفي شأن العقل والعلم والجسد يرشد إلى أسسه الصالحة ما جاء في الخبر:

"حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وألا يرزقه إلا طيبا."

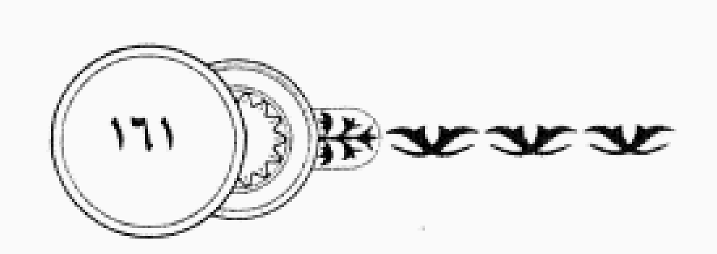
وفي التنشئة الصالحة ومدافعة الغرائز جاء الحديث الشريف:

"يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء."(٤)

ولقد سلك القرآن منهجًا فريدًا ليعلم الشباب وغيرهم الحقوق ليحرصوا عليها، والواجبات للمبادرة إلى أدائها، ولنقرأ على سبيل المثال - عن هذا المنهج ما سجله القرآن في قول الله تعالى:

---

(١) رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك.
(٢) رواه ابن حبان عن الحسن.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.
(٤) رواه أحمد والنسائي ومسلم.



﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)

وكذلك في قوله سبحانه:

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (٢)

ففيها تصحيح العقيدة بالتوحيد وعدم الإشراك وفيها تهذيب السلوك والترابط بين الفروع والأصول: ببر الآباء والإحسان إلى الأمهات. وإن اختلف الرأي والدين، وفيها إحساس بالمسؤولية أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وفيها تغذية للعقيدة وتثبيت لها بالعبادات وفيها أداء الواجب نحو المجتمع بنشر المعرفة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صبر وعزم وتحمل وترقب وأمل، وفيها أمر بالتواضع والوفاء والحياء.

نعم إن في هذه السورة وصايا كاملة ومتكاملة يجب أن تقوم عليها رعاية الشباب وتوجيهه في كل عصر وكل جيل، وفي هذه قال بعض الحكماء:

(من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو حمد حَصَّله، أو مجد أَثَّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه، وظلم نفسه).

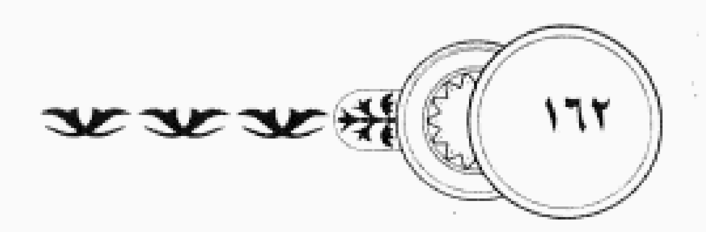
وفي شأن ترسيخ العقيدة يجب أن نعلم أن الإيمان ليس مجرد كلمات أو شعارات وإنما هو ـ قبل كل شيء ـ عقيدة وسلوك وعمل.

ولقد جاء الإيمان في القرآن مقرونًا بالعمل الصالح، فلا ينبغي أن نكون من الذين وصفهم الله في قوله تعالى:

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان.

(٢) الآية ١٩ من سورة لقمان.



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾(1)

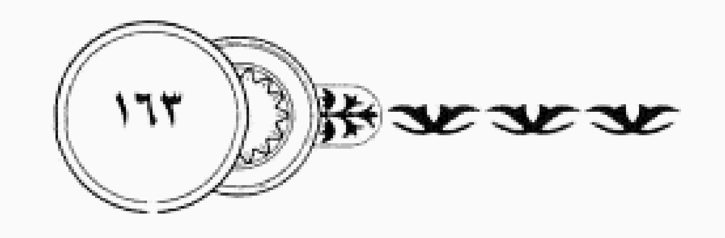
ومن ثم كان من واجب الوالدين والمربين أن يربوا الأولاد على أن الدين عقيدة وعمل، وأنه لا انفصام بينهما، وأن الدين يدعو إلى أقوم الأخلاق.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩ ﴾(2)

---

(1) الآيتان ٢، ٣ من سورة الصف.

(2) الآيات من ١٣: ١٩ من سورة لقمان.



سماحة الإسلام كما عبر عنها القرآن

من معاني مادة (سمح ـ سماحة): جاد وأعطى. وأصل التسامح: الاتساع، ومنه يقال: في الحق مسمح، أي متسع ومندوحة عن الباطل.

وبهذا الاعتبار تواردت آيات كثيرة في القرآن تعبر عن وجوه من سماحه الإسلام.

من ذلك أن القرآن لم يقف من الأديان السماوية السابقة موقف تحد وجحود، وما كان له أن يقف مثل هذا الموقف؛ لأنه جاء استكمالاً لرسالة وشرائع الرسل السابقين، وجميعها مع الإسلام من مشكاة واحدة تفيض بالنور والهدى؛ لأنها رسالات الله إلى الناس، وجاء الإسلام خاتماً مستكملاً ما تحتاجه البشرية تبعاً لتطورها في العلوم والمعارف والسلوك والأخلاق، ومن ثم كان تقرير الله في القرآن بأن الإيمانَ أصلاً من أصول الإسلام على الوجه الذي جاء في قوله ـ تعالى ـ في (سورة البقرة):

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾(١)

فالإسلام الذي يقرر كتابُهُ هذا المبدأ لا يكره الناس على أن يدخلوا في حوزته؛ بل يقرر القرآن قول الله تعالى أنه:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾(٢)

---

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

ويرسم في القرآن أسمى وسائل الدعوة إلى الله بوجه عام بقوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (١)

فإذا كانت الدعوة متعلقة بأهل الكتاب، وجه القرآن المؤمنين إلى مزيد من الرفق وإظهار المودة وحسن المجادلة والحوار. نجد هذا في قول الله ـ سبحانه:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٢)

وإذا نظرنا إلى شريعة الإسلام نجد أنها قد اشتملت على أحكام توثق علاقات الناس في المعاملات، ونظام الأسرة، والمواريث والوصايا.

ولقد توخت هذه الشريعة العدل في توزيع التركة، وحالت بما صنعت دون تجمع الثروة في أيد قليلة، مثلما تقرره بعض القوانين التي تخص الابن الأكبر ـ وحده ـ بجميع التركة، وتحرم الآخرين من الأبناء والبنات؛ ونَظَّم الإسلام الوصايا بما يكفل لصاحب الأموال أن يوصي من ماله بما لا يزيد على ثلث كل تركته، وأقام الإسلام نظام التوريث على معايير القرابة والمصاهرة.

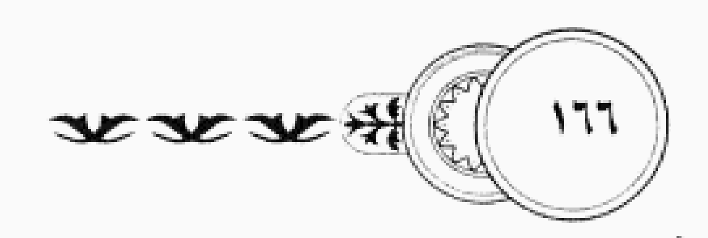
وليقرأ من يشاء آيات المواريث في (سورة النساء) ليجد فيها حكم الإسلام الذي يمثل العدل المطلق فيما شرع.

ثم ها هو القرآن يورد مثلاً للمروءة التي هى من صنوف السماحة فيقص علينا موقف موسى ـ عليه السلام ـ حين ورد ماء مدين فيقول الله سبحانه-:

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٢) من الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.



﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

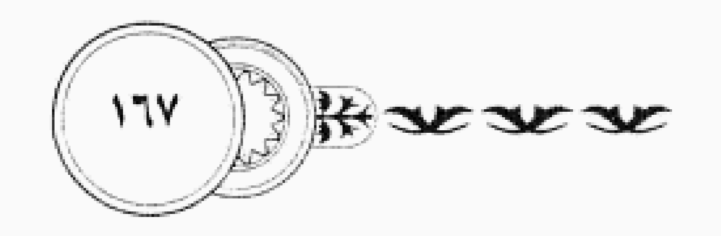
هذه المروءة التي تمثلت في تقديم موسى ـ عليه السلام ـ معونته إلى هاتين المرأتين اللتين قد وقفتا بعيداً عن مورد الماء حتى ينتهي التزاحم عليه، فسقى لهما.

هذا الصنيع جاء به القرآن ليكون نموذجاً لتقديم العون إلى كل محتاج من كل قادر. وها هي سماحة الإسلام تمتد بالإحسان إلى اليتيم وإلى الوالدين والأقربين والمساكين وابن السبيل.

نرى هذا صريحاً واضحاً في قول الله – سبحانه–:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ (٢)

(١) الآيات ٢٣:٢٥ من سورة القصص.
(٢) من الآية ٢١٥ من سورة البقرة.



وفي قوله تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾[1]

وفي قوله عز وجل:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ﴾[2]

وفي قوله تعالى:

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ ﴾[3]

وغير هذا من الآيات البينات التي تفيض سماحةً ومودةً ومروءةً وإحساناً مساندةً للمجتمع الإسلامي المتكافل المتعاون على البر والتقوى.

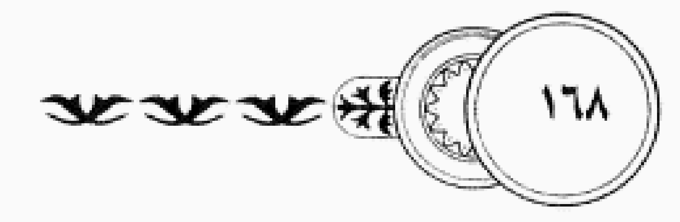
كما عرض القرآن على المجتمع الإنسان المعاصر صنوفاً من سخاء وكرم السابقين من المرسلين، فيتحدث عن قِرَى الضيف ويمتدح ذلك بطريق الإشارة.

---

(١) الآيتان ٨، ٩ من سورة الإنسان.

(٢) الآيات من ١١:١٦ من سورة البلد.

(٣) الآيتان ١٧، ١٨ من سورة التحريم.



يقول تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

وهذا من الله نداء إلى الناس بوجوب إكرام الضيف الطارق وإن كان غير معروف.

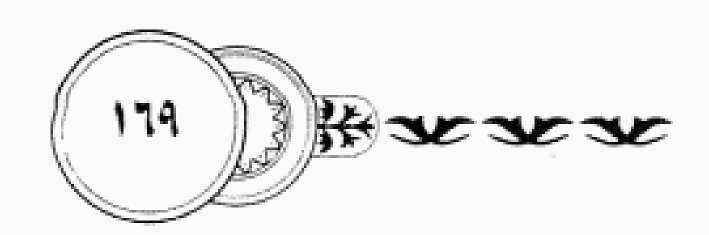
ومن هنا كان حث الإسلام أيضًا على الإحسان إلى ابن السبيل أي المسافر، وإكرامه. ومن سماحة الإسلام مرونة قواعده؛ إذ إنه باعتباره الدين الخاتم فصل بعض الأحكام التشريعية وأجمل الأخرى في قواعد تتسع لاحتواء كل الواقعات التي تجد وتحدث في كل زمان ومكان حتى لا يقع الناس في الحرج وتضيق عليهم المسالك.

وقد كان القرآن واضحًا في تقرير ذلك في قول الله سبحانه:

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ (٢)

(١) الآيات ٢٤: ٢٧ من سورة الذاريات.

(٢) من الآية ٦ من سورة المائدة.



الدين من الحضارة

يُعْنَى بلفظ الحضارة تلك الأسباب والأدوات والمظاهر التي تنقل الجماعة الفطرية إلى مستوى من الحياة تتوافر فيه الراحة الحسية والتقدم العقلي للإنسان.

ويتضح هذا المعنى للحضارة حين ننظر إلى مظاهر المدنية الحديثة من القطار إلى الطائرة والتليفون والتلغراف وتوابعها من وسائل المواصلات والاتصالات وآلات الطباعة التي يسرت لأجيال الإنسان فرص التثقيف والتعليم ومثلها كافة المخترعات الكهربائية والحرارية والكيميائية، إذ إن طبيعة الاستشراف عند الإنسان لا توقف طموحه عند العلوم النظرية، وإنما يمتد طموحه إلى طلب ما فيه نفعه ودفع ما فيه إضرار به. والعلوم في جملتها أداة تطبيقية نافعة - كالهندسة والطب والزراعة والصناعة - في السلم والحرب وشتى ما يحتاج إليه الناس.

وهذا يقال أيضاً في أخلاق المجتمعات، فقواعد الأخلاق في العالم متشابهة - سواء كان مصدرها الدين أو العادات - وهذه القواعد لم توضع لذاتها، وإنما وضعت كوسيلة لحياة فاضلة.

وما يعنينا هو: ما موقف الدين من الحضارة؟

لا شك في أن اتصال الدين بالحضارة، إنما يتوقف على مدى نظرة الدين لحياة الإنسان ومدى ما يقدمه من توجيهات مؤثرة في انتظام هذه الحياة.

وحين ننظر في الحضارة الإسلامية، نرى أنها ليست نتاجاً محلياً للعرب في جزيرتهم، وإنما هي حضارة ارتبطت بالإسلام وبالمسلمين على اختلاف شعوبهم ولغاتهم. وقد اختلطت بحضارات أخرى لأمم دخلت في الإسلام وتبلورت هذه الحضارات واصطبغت بالإسلام الذي استبعد منها مالا يتفق مع عقيدته وشريعته؛ لأنه دين شامل سمته التوافق العام بين الناحية الخلقية والناحية المادية في الإنسان.

فقد رغب في العلم والتعليم، وكان أول ما نزل من القرآن وحيًا على الرسول محمد ﷺ آيات تنبه إلى فضل القلم والعلم وأن الله هو معلم الإنسان، كما جاء في قوله تعالى. ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ في أول سورة العلق.

ولقد رسم القرآن المنهج العلمي لاكتساب العلم والمعرفة وأقامَهُ على دعامتين:

إحداهما: الاستفادة من تجارب الآخرين - سواء كانوا سابقين أو معاصرين - بالاستماع إليهم وبالانتفاع بآثارهم.

والدعامة الأخرى: استعمال العقل والتجربة في طلب الحقيقة لنهتدي إلى ما لم يهتد إليه غيرنا.

ونرى القرآن قد عبر عن (الدعامة الأولى) بالنظر والسماع، وعن (الدعامة الأخرى) بالعقل وبالقلب. كما جاء في (سورة الحج) و(سورة ق) و(سورة الملك).

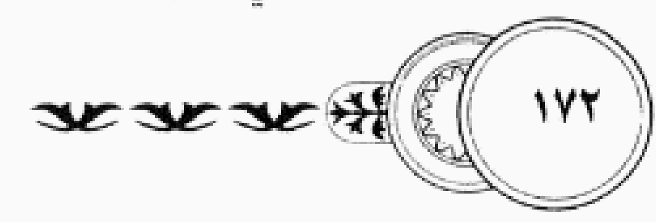
ولقد وضع القرآن لكل دعامة من هذه الدعامات ضوابط دقيقة تستخلص من نصوص الآيات المشار آنفا إلى سُوَرِها.

هذا، ولم يحصر الإسلام العلم والمعرفة في طائفة من الناس أيًا كان الموضوع دينيًا صرفًا، أو متعلقًا بشؤون الحياة الإنسانية، وإنما جعل ذلك مشاعًا بين الناس جميعًا يصل إليه كل من توافرت لديه الوسائل لاكتساب العلوم والمعارف من مصادرها الصحيحة.

وبذلك دفع الإسلام الإنسان إلى مجال العلوم، وفتح أمامه هذا الكون: أرضه وسماءه وبحاره وأنهاره. لم يمنعه من ارتياد أي شيء فيه بعقله إلا في نطاق واحد لا يحتمله هذا العقل، ويضل فيه ذلك هو ذات الله - سبحانه - وما استأثر به علم الله من الأمور الغيبية ومن هنا كان إرشاد رسول الله محمد ﷺ في قوله:

(تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله فإن الله تعالى خلق ملكًا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة).(١)

(١) رواه ابن كثير في تفسيره.



بهذه الكلمات الموجزة يتضح مدى الارتباط بين الإسلام وبين الحضارة، ومن ثم يمكن رد أصول الحضارة الإسلامية إلى عنصرين:-

أحدهما إسلامي بحت لم ينقل من حضارة أخرى، ولا التمس تعاليمه من عوامل أجنبية سابقة. وهذا يتمثل في القرآن والحديث الذي نُقل عن الرسول ﷺ واللغة العربية التي نزل بها القرآن، وكانت لغة الرسول والرسالة.

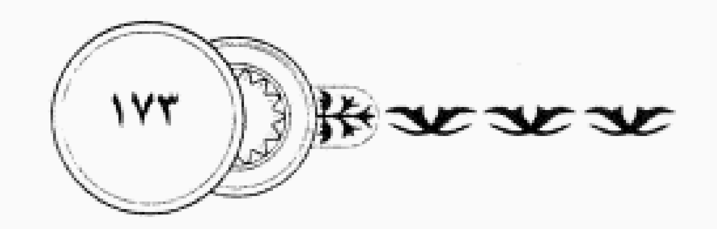
وهذا العنصر يشمل اللغة العربية بكافة فروعها وعلوم الفقه (القانون) وأصوله والأخلاق والتربية وأمثالها من العلوم التي نشأت أصيلة حول القرآن والحديث النبوي الشريف وفي حضانة الإسلام.

والعنصر الآخر يتمثل في العلوم التجريبية والرياضية والفلسفية ويكاد مؤرخو علوم المسلمين من طب وكيمياء ورياضيات وفلسفة يقسمون ما وصل إليه المسلمون إلى قسمين:

أحدهما هو ما أخذوه من اليونان في الأكثر، وعن الهند في الأقل.والقسم الآخر هو ما ابتكره المسلمون أنفسهم. ومع هذا، فقد كان للإسلام الأثر الأكبر في توجيه ما أخذه المسلمون من الحضارات الأخرى من العلوم والفنون ومزجه بثقافة القرآن والسنة وتعاليمهما.

ولا شك أنه كان لدى العرب ـ قبل الإسلام ـ بعض العلوم والفنون حيث كانوا على معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، ولكن لا على سبيل تأصيل العلوم وتعلم حقائقها، وإنما معرفة تجريبية لاحتياجهم إليها في معرفة أسباب المعيشة وكذلك الطب الإنساني والحيواني، ولديهم الأطباء من ذات أنفسهم بطول التجربة والممارسة، وليس بأصول علمية مدرسية.

وقد كان فن العمارة لدى المسلمين استمداداً مما رأوه من آثار الأمم القديمة التي دخلت في الإسلام، ثم أخذت الحضارة الإسلامية بخصائصها تُشكل



عنوانها منذ بداية القرن الرابع الهجري في الشرق الإسلامي وفي القرن الخامس الهجري في المغرب الإسلامي.

والإسلام يتسع لكل التطورات الحضارية في نطاق ما استجاب لعقيدته وشريعته، وما يسد نقصاً في ضرورات الناس وحاجاتهم. والتجديد في الحضارة الإسلامية يتجه نحو الكمال ويحفظ القيم الأساسية الإسلامية وينميها.

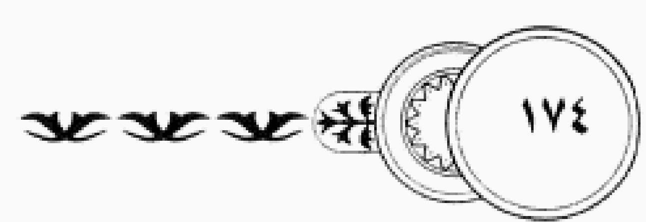
وهذا هو القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام ـ قد جعل العلم بمفهومه الشامل؛ أهم مجال يتحرك فيه المؤمن؛ فالزراعة علم، والصناعة علم، والتجارة علم، والسياحة علم يتعرف به السائح في الأرض علوم وفنون غيره وأخلاقهم وعاداتهم؛ ليكتسب منها ما يفيده في حياته الإنسانية. وبهذا، تتبادل الحضارات والخبرات في كل مجال.

إن القرآن عطاؤه دائم ومتجدد؛ فأقبلوا أيها المسلمون على القرآن في كل وقت والزموه، لاسيما في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، أَقْبِلُوا عليه تلاوة ومدارسة وتفقها، وخذوا من علومه والتزموا بأحكامه.

احفظوا القرآن في الصدور وتوارثوا حفظه، فإنه كلام الله إلى الناس.. واستمعوا واستمتعوا بآياته؛ فقد وصف الله ـ سبحانه – القرآن فقال:

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[1]

(١) الآية ٩ من سورة الإسراء.



سمات الحلال والحرام

وبعد أن هدأت موجة الفتاوى في الغناء والموسيقى وأمثالها أو كادت وتتابعت المقالات، وتكاثرت الأحاديث، كان لا بد من بيان الحق الذي تاه بين هذه وتلك.

الحلال هو المباح الذي أذن الشارع في فعله ولم يرد أمر بحظره، أو هو ما ليس ممنوعًا منعًا باتًا بدليل شرعي؛ فهو أعم من المباح.

والحرام هو الذي نهى الشارع عن فعله نهيا قاطعا؛ بحيث يتعرض من خالف النهي لعقوبة الله في الآخرة، وقد يتعرض لجزاء شرعي في الدنيا. ومن ثَم فالحلال والحرام في الإسلام متقابلان على ما تفصح عنه نصوص القرآن والسنة، مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ (١)

روى أبو موسى الأشعري في شأن الذهب والحرير أن رسول الله ﷺ قال: هذان حل لنساء أمتي محرم على ذكورهم. (٢)

والمكروه تحريما: ما كان إلى الحرام أقرب، وكان النهي عنه غير قاطع. والمكروه تنزيهًا هو فعل خلاف الأولى.

والمحرمات: منها ما هو محرم لذاته، وهو ما جاء تحريمه قاطعًا، كالخمر والميتة والخنزير والقمار والميسر وغيرها من المحرمات في الزواج وفي الأموال والأقوال والأفعال ونحو ذلك. ومنها ما كان محرمًا لما يقترن بها أو ما تؤدي إليه من باب سد الذرائع، ومثال هذه الأخيرة ما جاء في قوله تعالى:

---

(١) من الآية ١١٦ من سورة النحل.

(٢) رواه أحمد والنسائي.

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١)

حيث وجه الله المؤمنين من خلال هذه الآية إلى أن يتعاملوا مع غيرهم بأدب؛ فلا يسبوا آلهتهم مخافة أن يردوا بسب الله - سبحان، فهو نهي وتحريم من باب سد الذرائع.

ولقد حدد الإسلام أمر الحلال والحرام وأقامَهُ على مبادىء من صنع الله سبحانه. واستنبط علماء المسلمين من آيات الله - عز وجل - في كتابه في هذا الشأن ما يلي من المبادىء:

١- أن الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو الحل والإباحة، وأن الحرام لا يكون إلا بنص صحيح وصريح. على هذا ما جاء في (سورة البقرة) قول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٢)

وفي قوله:

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٣)

وفي قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (٤)

---

(١) من الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٢٠ من سورة لقمان.
(٤) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.



وأن مقتضى تسخير الله للإنسان كل ما خلقه أنه أحله، وأنه خلقه له، وأنعم به عليه، وما حرمه من هذه المخلوقات كان لحكمة وبأمر صريح وواضح؛ فما لم يجيء نص محرم، كان الحل والإباحة.

وفي بيان هذا، جاء في قول الرسول ﷺ من حديث أبي الدرداء الذي رواه الحاكم وصححه:

"ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن ينسى شيئًا."

وتلا قول الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١)

وهذه القاعدة: (إن الأصل الحل والإباحة) ليست قاصرة على الأشياء والأعيان فحسب؛ بل تمتد فتشمل الأفعال والتصرفات مما يدخل تحت (العادات والمعاملات).

أما العبادات؛ فإنها من أمر الدين المحض الذي لا يؤخذ إلا عن طريق الوحي. فلا يعبد الله إلا بما شرع. وأما العادات والمعاملات فهي من صنع الناس والشارع يصحح ما انحرف منها أو يهذبها، ويقر الصالح منها:

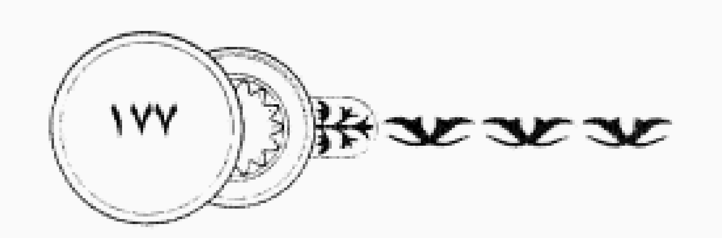
٢- إن التحليل والتحريم مختص بالله ـ وحده ـ ذلك ما يشير إليه قول الله سبحانه:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) من الآية ٦٤ من سورة مريم.

(٢) الآية ٥٩ من سورة يونس.



وقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[1]

ومن هذه الآيات وغيرها وأحاديث رسول الله ﷺ عرف المسلمون أن التحريم والتحليل إنما يكون بحكم الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

ولقد درج الأئمة المجتهدون على أن يقولوا في الفتوى - فيما لم يرد فيه نص بالحل أو بالتحريم: "هذا أكرهه، أو لا أحبه، أو لا يعجبني، أو لا أستحسنه "توقيا من أن يقولوا بغير ما جاء في القرآن وثبت من السنة.

٣- **تحريم الحلال، وتحليل الحرام** كالشرك بالله تعالى:

ففي الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه.

«إني خلقت عبادي حنفاء، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا مالم أنزل به سلطانا».

٤- التحريم أساسه الخَبَث والضرر في كل ما حرم من شيء أو عين أو قول أو فعل أو عادة أو معاملة.

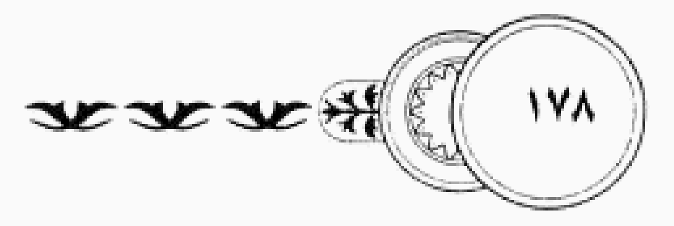
ففي سورة الأعراف قول الله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾[2]

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النحل.

(٢) من الآية ٣٢ من سورة الأعراف.



وقوله – سبحانه – في ذات السورة:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١)

وفي سورة المائدة قول – الله – تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)

وإذا تتبعنا آيات التحريم في القرآن نجدها قد فصلت المحرمات وأمرت بالبعد عنها تشريعاً من الله فهو – سبحانه – الحكيم الرحيم بعباده وكما قال – تعالى–:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾ (٣)

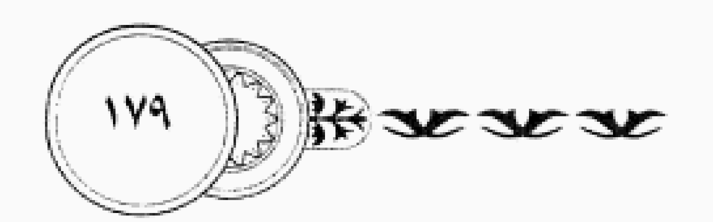
٥– **في الحلال ما يغني عن الحرام**، فقد حرم الله الربا وأحل التجارة الرابحة وحرم الجلوس إلى السحرة والمنجمين، وشرع الاستخارة، وحرم القمار والميسر، وأباح المسابقة بالخيل والإبل والسهام، وغير هذا من المسابقات المشروعة فكل محرم نجد له بديلاً مباحاً حلالاً طيباً.

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآيتان ٨٨،٨٧ من سورة المائدة.

(٣) من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.



٦- **ما أدى إلى الحرام كان حرامًا**. ذلك أن الإسلام حين يحرم أي شيء يحرم ما يفضي إليه من وسائل، فحين حرم الزنا حرم مقدماته من تبرج النساء وعريهن، والخلوة بين المرأة وغير زوجها ومحارمها، والاختلاط العابث، والصور العارية، والغناء الفاحش، إذ كل أولئك من دواعي هذا الفساد.

وحين حرم الخمر لعن شاربها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها.

وفي الربا لعن معطيه وآكله وكاتبه وشاهديه.

٧- التحايل على الحرام حرام:

وهذا التحايل يصور بعض مثله قول رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام أحمد «ليستحلن طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها.»

وقوله: "يأتي على الناس زمان يستحلون الربا بالبيع" [١].

ومن قبيل ما شاع من تغيير لاسم المحرمات في هذا العصر:

إطلاق اسم الفن على أنواع من الرقص الخليع، والغناء الفاحش، والتصوير الماجن، وإطلاق اسم المشروبات الروحية على أنواع الخمور، وتسمية الربا بالفائدة.

وكلمة الفن تطلق ويراد بها التطبيق العلمي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها، ويكتسب بالدراسة والمران، كما تطلق على جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصة: عاطفة الجمال كالتصوير والموسيقى والشعر والغناء والتمثيل وشاعت عرفًا في هذه المتنوعات الأخيرة.

---

(١) رواه الأوزاعي كما في نيل الأوطار للشوكاني جـ ٥ أبواب الربا.

وهذا: والنية الحسنة لا تبرر الحرام ولا تحله؛ فالحرام مُحرَّم مهما حسنت نية فاعله، وشرف قصده ولا يقر الإسلام أن يتخذ الحرام وسيلة إلى غاية محمودة؛ لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية وطهر الوسيلة معاً.

واتقاء الشبهات خشية الوقوع في الحرام من واجب المسلم سداً للذرائع والإسلام قد بين الحلال والحرام من الأطعمة والأشربة وفي اللبس وفي أدوات المنزل وفي الكسب والاحتراف وفي العلاقات الاجتماعية.

ومن المحرمات لغيرها: الغناء والموسيقى إذا صاحبها معصية أو كانت تدعو إليها، وهذا باتفاق العلماء.

وأما المباح من الغناء والموسيقى فهو مالم يقترن أو يشتمل على منكر أو محرم بنص قطعي. فإذا وجدت الخمور والرقص والعري والاختلاط غير العف مع الموسيقى والغناء حرم حضور هذه المجالس.

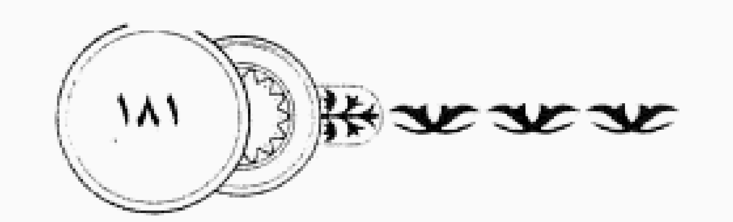
وهناك قيود في الموسيقى والغناء لا بد أن تُراعى، وإلا دخلت في نطاق المحرم قطعاً وهي:

١- أن يكون موضوع الغناء مما لا يخالف أدب الإسلام وتعاليمه فالأغاني التي تمجد الموبقات والمحرمات وتدعو إليها محرمة أداء واستماعاً.

٢- إذا كان موضوع الأغنية والموسيقى غير منافٍ لتوجيهات الإسلام ولكن طريقة الأداء اتسمت بالتميع والتكسر، وتعمد إثارة الغرائز والإغراء بالفتن والشهوات والعُري والتبرج كانت محرمة أداء واستماعاً؛ ألا ترى أن الله سبحانه نبه إلى خطر هذا الصنيع من النساء. فقال سبحانه لأمهات المؤمنين في قوله تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

(١) الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.



٣- إن الإسلام يحارب الإسراف والغلو في كل شيء حتى في العبادة، ومن باب أولى: الإسراف في المباحات وتحت أي مسمى؛ إذ لا شك أن الإسراف في المباحات يأكل وقت الواجبات، وقد قيل: ما رأيت إسرافًا إلا وبجانبه حق مضيع.

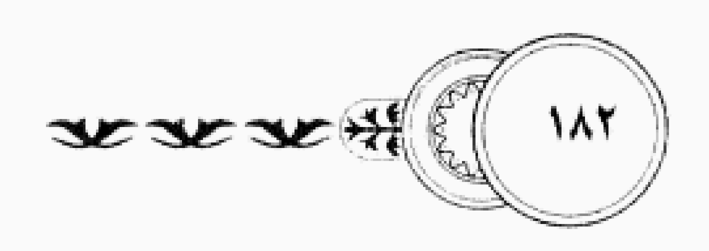
٤- هناك أشياء موكلة شرعًا إلى ذات المسلم وتقديره فإذا وجد المسلم في مكان فيه غناء أو موسيقى أو هما أو غيرهما مما يستثير غريزته ويغريه بالفتنة، كان عليه أن يجتنبه بعدًا عن الوقوع في المحرمات.

٥- من المتفق عليه أن يحرم الغناء والموسيقى إذا اقترن ذلك بمحرمات أخرى كشرب الخمر أو المخدرات أو كان في المجلس خلاعة أو فجور إذ هذا هو ما نبه عليه حديث الرسول ﷺ وأنذر أهله وسامعيه بشديد العذاب ذلك ما رواه ابن ماجه:"

"ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير."

وإذا كان بعض الناس قد تحدث عن حل وحرمة الموسيقى والغناء بالإطلاق، ومبيحًا لكل هذا دون أية قيود؛ فإن في هذا الإطلاق، مخالفة لنصوص الإسلام وأصوله.

إن هؤلاء الذين تنادوا إلى الإفتاء من كتب لم يعدها كاتبوها لتكون مرجعًا موثقًا للنصوص التشريعية في الإسلام «كالأغاني» للأصفهاني وغيره، قد فرطوا في حق الإسلام وأفرطوا في العرض على الناس بما أوقعهم في الحيرة في أمور الحلال والحرام في الإسلام.



ومن أولئك فريق ذهبوا يرددون واقعات أجيزت من رسول الله ﷺ بضوابط تسلم بها الأخلاق، كما تصان بها عفة المجتمع، وكان على هؤلاء الذين تنادوا بها أن يسجلوا ما احتَفَّ بها من قرائن؛ فقد كان الغناء في ذلك العصر التشريعي في الأعراس في مجتمع النساء، لا خلطة فيه للرجال ولا يقترن بأية محرمات أخرى كالشرب المحرم، والعري الفاضح، وليكن معلوماً أن الإسلام لا يمنع الترفيه في المجتمع وإشاعة السرور والترويح عن النفس، بل لقد شرع ذلك في أيام الأعياد، وفي الأعراس، ولقدوم الغائب، وفي الوليمة، وفي الحفاوة بالمولود بما يسمى العقيقة؛ وإنما يحارب المجون الذي يحتف بكل تلك المناسبات.

وما يقال عن الغناء يسري على التمثيل، فهو من وسائل التثقيف وعلاج أدواء المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفي الوقت ذاته ترفيه، لو أنه توجه إلى إبراز الايجابيات في حياة المجتمع بإيراد المثل الناجحة في نواحي الحياة المختلفة حتى تكون مثلاً تحتذى، وفجر السلبيات التي أوقفت ارتباط المجتمع بالأخلاقيات الرفيعة التي تغياها الإسلام؛ بل وساقته إلى الانحدار والانحسار عن الفضيلة والفضائل، فشاعت الأنانية بين الناس، وتقطعت الروابط، وسادت الأكاذيب والشائعات، وخيانة الأمانات، وغير هذا من السيئات.

إن التمثيل - لو أحسن استثماره - أداة صالحة للتربية العفة النظيفة. والقرآن الكريم قد ضرب لنا القصص والأمثال التي واجهت المثالب والمعايب، وأوضح أثر الكلمة الطيبة وآثام الكلمة الخبيثة. كهؤلاء الممثلين الذين لا بضاعة لديهم إلا كلمات السخرية بأفراد وفئات متناسين أن الإسلام حرم السخرية بصريح القرآن حيث قال الله تعالى:



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١)

وبمناسبة التطرق إلى التمثيل:

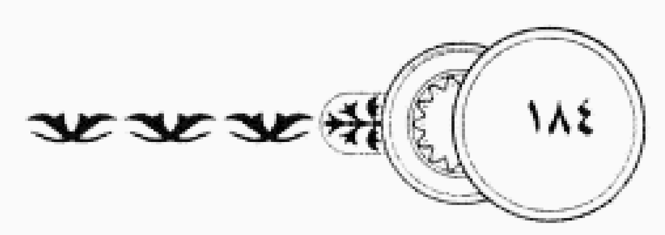
فلقد قرأت (حديثًا) لأحد السادة الفنانين في إحدى المجلات المصورة تحدث فيه عن الفقه، وعن مكتبته، وعن المصالح المرسلة، وإنه لأمر سار أن يعنى فنان، بل وكل الفنانين بأن تكون لديهم كتب ومكتبات يستزيدون منها في شتى أنواع المعارف والثقافة. وأن تمتد ثقافة الفنان إلى المصطلحات الدقيقة في علم أصول الفقه، وربما إلى علم الفقه ذاته، حتى يتعرف إلى الحلال فيستزيد منه في فنه، كما يتعرف على معالم المحرمات فيباعد بين نفسه وبينها، وبين عرضها على الناس؛ إذ هو في مهمته من المربين ومن المثقفين (بكسر القاف المشددة والفاء) لأن هذا اللفظ مأخوذ كما يقول أهل اللغة من: ثقفته (بالتثقيل أقمت المعوج منه).

أما عن المصالح المرسلة التي ألمح إليها في حديثه ودفاعه عن الفن المعاصر السائد في السينما والمسرح وما يتبعهما في وسائل الإعلام؛ فإن (المصالح) جمع مصلحة، ومعناها: المحافظة على مقصود الشرع الإسلامي من (جلب المنافع ومنع المفاسد عن الناس). والمراد بكلمة: (المرسلة) ما لا ترجع إلى نص معين من نصوص الشريعة الإسلامية، ولم يرد فيها ما يشهد لها بالإجازة ولا بالإلغاء.

وجملة ما تثبته المصالح المرسلة كدليل شرعي: أن ما شهد له الشرع بالاعتبار من الأوصاف المناسبة للأحكام مقبول بالاتفاق بين العلماء، وما شهد له

---

(١) الآية ١١ من سورة الحجرات.



الشرع بالإلغاء غير مقبول اتفاقا كذلك. وما لم يشهد له الشرع لا بالاعتبار ولا بالإلغاء موضوع اختلاف بين الفقهاء، ومجال أعمال المصالح المرسلة للشؤون الدنيوية في مسائل المعاملات وسائر الارتباطات القانونية وفي تنظيم المسائل القضائية والسياسية والحربية وكل ما له علاقة بنظام الدولة وتنظيم المعاملات بين أفراد الشعب، وبينهم وبين الدولة، وبين الدولة وغيرها من الدول الأخرى ما دامت تلك المصالح لا تتصادم مع النصوص القطعية العامة، وما دام الأخذ بها بمعزل عن ظلم الناس.

ومن ثم، فليس من المصالح المرسلة هذه الفنون التي تعارف عليها الناس في هذا العصر؛ فعند إطلاق كلمة فن فقد ارتبط تاريخياً وواقعياً بمجالس الشرب وما يكون فيها وحولها مما يعف عنه القلم.

إن الغناء والموسيقى في ذاته لا حرج فيه، فهذه الأم التي تهدهد وليدها وتغني له أو تلك التي تغني لزوجها أو ذلك الذي يغني لزوجته أو تلك التي تغني للنساء في مجتمعهن الخاص بما لا فحش فيه من قول أو فعل في الأعراس، كل هذا ونحوه داخل في الطيبات. لأنه نوع من اللهو والترف الذي تستريح إليه النفوس وتطرب له القلوب وتنعم به الآذان.

أما إذا كان الغناء وأتباعه من الموسيقى والتمثيل من عوامل الإثارة والهدم والسخرية بالأفراد والجماعات والإلهاء للناس عن أعمالهم وواجباتهم اليومية في العبادات والمعاملات والأعمال.

أما إذا كان كذلك، فقد انحدر من دائرة (الطيبات) إلى دائرة (الخبائث).

حيث قال الله تعالى:

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾[1]

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.



ذلك أن واقع الطيبات والنعم لا تؤول بذاتها إلى نقم وإنما بصنيع الناس تصير النعمة نقمة، والطيب خبيثًا بالاستعمال في غير وجهه المشروع.

ولعله كان الأولى بالفنان صاحب الحديث وهو يشير إلى المصالح المرسلة أن يشير كذلك إلى دليل آخر من الأدلة الشرعية المرتبطة بالموضوع وهو سد الذرائع وهو دليل ثابت بالقرآن وبالسنة الشريفة ففي القرآن قول الله سبحانه:

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ (١)

فقد نهت الآية النساء عن الضرب بأرجلهن ذات الخلاخيل لينبهن الرجال للنظر إليهن ومتابعتهن؛ فكان صنيعهن هذا ذريعة إلى هذه المفسدة، ومثله في هذه الأيام بدلاً من الخلاخيل دقات كعوب أحذية النساء في الشوارع والطرقات وغيرها من مجالات حضورهن بين الرجال.

من هذا الباب (سد الذرائع) قول الله سبحانه:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٢)

إذ إن سب المؤمنين آلهة غيرهم ذريعة تجر هؤلاء إلى أن يسبوا الله رب العالمين. فإذا كانت الذريعة في ذاتها مباحة أو تفضي إلى مباح، لكنها توصل إلى مفسدة، صار هذا المباح محرماً دفعاً للفساد المرتقب.

وفي السنة الشريفة من حديث عبدالله بن عمر في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) من الآية ٣١ من سورة النور.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.



"إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟

قال: "يسب الرجل أبا الرجل؛ فيسب أباه ويسب أمه."

ومن ثم، يمتنع بل يحرم على المسلم أن يسب أب إنسان آخر أو أمه حذراً من الرد بسب والده وسب أمه.

ولا ينبغي في باب الاستدلال على حكم شرعي أن نأخذ ببعض الكتاب ونعرض عن بعض على مثال ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾(1)

فلا يجوز أن نقف هنا ولكن لابد أن نكمل الآية هكذا.

﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾(2)

ولا تَتْلُ قول الله تعالى:

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴾(3)

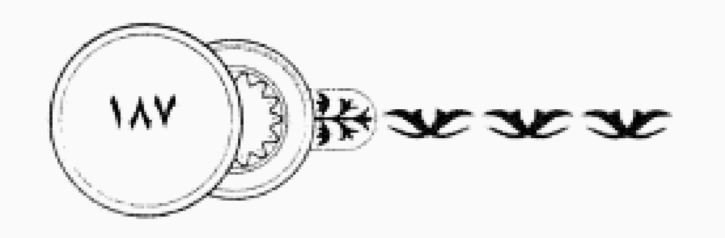
فقط؛ بل تكمل معها باقيها:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾(4)

وحين نحاول الاستدلال بالمصالح المرسلة ـ مع أن الموضوع لا يدخل في نطاقها ـ نذكر الدليل الذي يحكم الموضوع وهو سد الذرائع وإذا كان الغناء

(٢،١) من الآية ٤٣ من سور النساء.

(٤،٣) الآيتان ٥،٤ من سورة الماعون.



والموسيقى والتمثيل من الفنون وكل ذلك في ذاته من المباح الذي لا حرج فيه بل قد يدخل في الطيبات كما تقدم. لكن ذلك مشروط بما سبق من قيود. حتى إذا ما انفك عنها، واقترن بتلك العوارض التي تنقله من دائرة المباح إلى الحرمة، أو إلى الكراهة التحريمية على الأقل. حتى إذا ما آل إلى هذه الحال كان تطبيق دليل سد الذرائع حتمًا مقتضيًا، وكان واجبًا كذلك إعمال قاعدة: درء المفاسد أولى من جلب المصالح، فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة نزولاً على حكم رسول الله ﷺ: حيث يقول:

"إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه"[1].

وفي هذا الموطن لا يفوت أن ننبه إلى أن أولئك المواطنين الذين لجؤوا، أو يلجؤون إلى العنف والإيذاء لفرض الرأي أو لإزالة ما قد يرونه منكرًا قد أخطؤوا الوسيلة المشروعة في الإسلام؛ إذ الضرر لا يزال بالضرر.

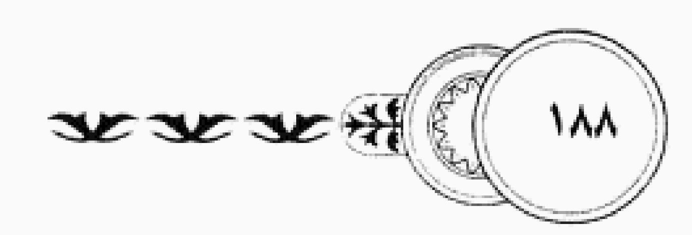
فهل للفن أن يتحرر مما يوبقه؟

وهل للفنانين أن يعملوا بفنهم لبناء هذا الشعب، وعودته إلى قيمه الأخلاقية والاجتماعية المستمدة من تعاليم الإسلام، وأن يشاركوا الشعب في مواكب الإصلاح الشامل لمسيرته، وألا ينجروا إلى مواقف ومظاهرات لم يتقبلها الأكثر من الناس؟

ثم إنه من الخير لمن يفتي في الحلال والحرام أن يثبت مما يقول حتى لا يوقع الناس في خطأ في الدين.

---

(١) من الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي سعيد - رضي الله عنه - في باب الحج (حـ ١ جمع الفوائد).





هــــذا؛

وإذا كـانت قـد وقـعت حـوادث في بعض الجـامـعـات بسـبب الرغـبـة في إقـامـة حفلات غنائية وموسيقية، فإنه ينبغي مراجعة برامج هذه المناسبات، وأن تدور في نطاق ما أباحه الإسلام، حتى لا تصبح دور العلم مكانًا للعبث بالحرمات، والجرأة في المحـرمـات؛ وإن كـان الأولى أن تنزه دور العلم من جـامـعـات ومدارس عن أن تكون مكانًا لمثل هذه الحفلات الغنائية والموسيقية التي لا تخلوا ـ غـالبًا ـ من مخـالفات لقواعد الأخـلاق التي أمـر بها الإسـلام حيث تطغى في تلك الحـفلات النزوات والرغـبـات على كل القـيـود والحـدود، وهذا ـ كـمـا سـبق ـ من باب سد الذرائع، ووضع القدوة الحسنة للطلاب والطالبات.

وبهذا نصون مجتمعات الشباب من كل المتاعب والمصاعب.

الفهرس الموضوعي

عربية للطباعة والنشر
٧-١٠ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣